ملحق

رسائل ابن أبـي الشخباء

(الـنَّـصْ)

ولمَّا كان في قراءة النص الأدبي في مصادره الأولى فائدةً عظمى لدارس الأدب ومتذوقه، رأى البحث أن يلحق الدرس الفني لرسائل ابن أبي الشخباء بنصوص الرسائل ذاتها كما عثرنا عليها في مظانّها الأولى، في ذخيرة ابن بسّام وفي معجم الأدباء لياقوت، وفي الأفضليات للصيرفي، فقد يحتاج قارىء هذه الدراسة إلى الرجوع إلى النص الذي أبدعه الكاتب حتى تستكمل الصورة التي استهدفها البحث، وربما يزيد القارىء من ملاحظاته الفنية أكثر مما سجلته هذه الدراسة عندما يُمْعِن في قراءة نصوص رسائل ابن أبي الشخباء.

ولعل في إيراد الرسائل بنصّها ما يعين الدارس على الدراسة التطبيقية للنثر العربي فالفائدة التي تعود من الدراسة الفنية بعيداً عن النص ذاته لا شك أنها فائدة مبتورة غير موثقة، والرجوع إلى رسائل ابن أبي الشخباء في مصادرها ليس بالأمر العسير ولكن وجود الرسائل مع دراستها في ثبت واحد قد يكون من الأفضل للدارس والدراسة.

* * *

نصوص رسائل ابن أبـي الشخباء

أولاً : في الذخيرة
ثانياً : في معجم الأدباء
ثالثاً : في الأفضليات

أولاً

في الـــذخـــيرة

[المجيد بن أبـي الشخباء العسقلاني][1]

. . . . . [2]

. . . الجـاذبُ أشطانَـه، وإنَّما هـو الآن يُرْخي حتى يجـذبَ، ويجتمـعُ لكي يشبَ.

---

(١) هـو الحسن بن محمد بن عبـد الصمد بن أبـي الشخبـاء أبـو عـلي العسقـلاني (يـاقـوت ٩: ١٥٢)، والحسن بن عبد الصمد (ابن خلكان ٢: ٨٩)، وقد أشار كلاهما إلى ترجمته في الذخيرة وأثبت ياقوت نقلاً عن ابن بسّام أنه توفي سنة ٤٨٢، (وقع خطأ في الطبعـة المصريـة من معجم الأدباء: ٤٣٢)، وكـان يلقب بالمجيد ذي الفضيلتـين، ويقـال إن القاضي الفاضل استمد من رسـائله. وذكره العـماد في الخريدةفي العسقلانيين في القسم التابع لشعراء مصر الورقة: ١٤ (نسخة بـاريس رقم: ٣٣٢٨)، فقال: «مجيـد كنعته، قـادر على ابتـداع الكلام ونحتـه، له الخـطب البديعـة، والملـح الصنيعة، وكـان قبـل عصرنا في أيام الأقسيس سنة سبعين وأربعمائة»، وذكر العماد أنه رأى ديوانه عند صديق له بدمشق. وللمجيـد مختارات من شعـره في الخريـدة ومجموعـة من رسائله وخـطبه في الريحان والريعان وفي جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام. وقـال ياقـوت إن أكثر رسـائله إخوانيات وأورد جملة منها. وجعل المقريزي وفاته سنة ٤٨٦ (اتعاظ ٢: ٣٢٨).

(٢) سقطت هنا ــ فيما أعتقد ــ صفحة ضاعت بها بقية ترجمة جـلال الدولـة ابن عمار وأول ترجمة المجيد بـن أبـي الشخباء.

١ ــ ولـه من أخرى:

المودّاتُ إذا كانت متينةَ العقود، صادقةَ المشهود، موضوعةً على أصلٍ عـريق، وأسـاسٍ وثيق، لم تُجْـزِعْهَـا[١] الشُّبْهَـةُ المُـرْمِضَـةُ، ولم تُـزَلْـزِلْهـا الأبـاطيل[٢] المعتـرضةُ، وإن تنـاقلتها أَلْسُنٌ مختلفـة، وعَلَتْهـا بـرودٌ من اللفظ مُفَوَّفة، ولما رأيتُ زيارةَ مولاي قد صارت مُرَقَّعَة، وجَنوبَ[٣] مـودَّتِهِ قـد عادتْ مُرَوَّعة، وصـرتُ أرى قَوْلَـهُ متناقضـاً، وماءَ البِشْـرِ من وجهه غـائضاً، من بعـد ما عهدتُهُ[٤]:

تنبي طـلاقـةُ وجهِـهِ عن وجهـه[٥] فتكـاد تلقى النُّجْحَ قبـل لقـائِـهِ
وضـيـاء وجـهٍ لـو تـأمَّـلَهُ امـرؤٌ صـادي الجوائـح لارتـوى من مـائـه

لم أتجـاسَرْ على سؤالـه عن العلّة خوفـاً أن يعيبَ عليَّ الارتيابَ بـودّه، وتَطرُّقَ سوءِ الظنِّ على عهده، فسألتُ من يعلم دفائِنَهُ، ويَخْبُرُ ظاهِرَهُ وبـاطنَهُ. فـأخبرني أنَّ بعضَ النَّـاسِ ــ ولم يُسَمِّـهِ ــ نقـل إليـه عنّي، فشنَّ الغـارة على وفـائـه، وزلـزل أواخي ودِّه وإخـائـه، فقلت: عَتْبٌ واللَّهِ ولا ذَنْب، وشكـايـةٌ ولا نكـاية، وأنـا أُحاكمُ مـولاي إلى إنصافِـهِ لا إسعافِـهِ[٦]، وعـدلِـهِ لا فَضْلِهِ، وما كان أَجْدَرَهُ برفضِ قولِ الماحل[٧]، وتغليب الحقِّ على الباطل، (ولا يرى

---

(١) تجزعها: تدخل عليها الجزع.

(٢) ص: الأباطل، وجمع باطل عند سيبويه «أباطيل»، وعند غيره أن أباطيل جمع أبطولة: وقد تردُّ «أباطيل» إلى «أباطل» لحاجة الشاعر، ولا ضرورة لذلك هنا.

(٣) ص: وشيوب. وتقول العرب للاثنين إذا كانا متصافيين ريحهما جنوب. قال الشاعر:
لعمـري لئن ريح المـودّة أصبحت شمـالاً لقـد بـدلت وهي جنـوب

(٤) ورد البيتان التاليان في الخريدة، ص ١٥.

(٥) الخريدة: ورد.

(٦) ص: لإسعافه.

(٧) ص: القول الماحل؛ والماحل: الساعي؛ ومحل به: كاده بسعاية إلى السلطان.

نَفْسَهُ بصورةِ مَنْ تَسْتَخِفُّ حصاتَهُ الريحُ الخافقة، وتشعَّثُ من مودّته الأقوالُ الماذقة). ولو انتقضتْ عندي المعاقد، وقامت عليَّ ــ وأعوذ بالله ــ الشواهد، لكان مولاي حريّاً أن يجري في كرم اللقاءِ على العادة، ويتأدَّبَ بقولِ أبي عبادة[1]:

أَبَيْتُ على الخلّانِ إلَّا تحنياً ... يلينُ لهم قلبي[2] ويصفولهمْ شِرْبي
وإني لأستبقي الصديقَ إذا نبا ... عليَّ وأهنا من خلائِقِهِ الجُرْبِ[3]

والآن فقد أَوْضَعْتُ وأَوْجَفْتُ، وتألَّفْتُ مولاي واستعطفت، فإن عادتْ ظلالُ ودِّه مديدة، وحبالُ كَرَمه مَحْصوفةً[4] جديدة، فَحَسَنٌ بتلك الشمائِل، أن تجمع شَمْلَ الفضائل؛ وإن تمادى على هذه الهجرة، ولم يصحُ من نَشَوَاتِ تلك السَّكرة.

فما ذاك من ذنبٍ عليَّ اجترمتُهُ ... إليه فيجزيني به حيثُ أعلمُ
ولكنَّ إنساناً إذا مَلَّ صاحباً ... وحاول صَرْماً لم يزلْ يتجرَّم

واللَّهُ جلَّتْ قدرتُهُ يجعلُ حفظ المودةِ عنده أوجبَ الحقَّيْنِ، وأنفعَ العِلْقَين، ويرفَعُهُ عن السِّمَةِ بنقضِ المرائر، وحليةِ الجائِرِ الغادر.

٢ ــ وسافر بعضُ إخوانه فَشُغِلَ عن وداعه فكتب إليه:

ما أخرَّني عن خِدْمَةِ مولاي بالوداع أنّي متأخِّرٌ في حَلْبَةِ ولائه، ولا عارٍ من ملابس إخائه وآلائه. ولوددتُ لو صحبتُ ركابَهُ السعيدَ إلى الصعيد، وقطعتُ معه عرضَ المهمهِ البعيد، وَزَوَّدْتُ من مجاورته قلباً معموراً بودّه،

---

(١) هو البحتري: والبيتان في ديوانه: ص ١٠٥.
(٢) الديوان: عطفي.
(٣) أهنا: مخفف من أهناً، أي أطلي بالقطران.
(٤) ص: مقصوفة؛ والحبل المحصوف أو المحصف هو المحكم الفتل.

ومِنْ مشاهدته طرفاً لا صَبْرَ لَـهُ مِنْ بَعْدِهِ. وإنما حجزني أمران كلٌّ منهما يمهِّدُ الْعَـذْرَ ويبسُطُهُ، [ويمحو][1] الْذَنْبَ ويحْبِطُهُ، وهو شغلي في إنشاء التقليد [العليّ][2] وتحريره، وفعل ما أمرتْ به الحضرةُ السامية وتقريرِهِ، ثم خوفي أن أرى مولاي وقد حلَّ انطلاقُه. وأسمعَ [أن قد حان فراقه]، ونَعَقَ غرابُ بَيْنِه فقضَّ أضلعاً، وأفاض نفوساً وأدمعاً، فضعفتُ عن مشاهدةِ ذلك المقام، وقصرت [عن تحمل ذلك] الداءِ العُقام، وظللتُ أُنْشِدُ، والدموع هُمَّعٌ مُصَدَّعُ:

وأخرني[3] يوم انطلاقك أن أرى ... على جمراتِ البين [قلبي يُلذَّعُ]
فؤاد إذا قيل الفراقُ تساقطَتْ ... خُفوقاً أواخي صبرِهِ[4] تتقطَّعُ
وإني صليبُ العودِ في كلِّ حادثٍ ... ولكنَّ أعوادي [لنأيك خِرْوَع]

وإذا استنقذ البينُ هذه النوبة، وخفقتْ بمشيئةِ اللَّهِ رياحُ الأوْبة، وهبتُ وجهي للشحوب، وجسميَ للنَّصَب واللغوب، وهتمتُ ثنايا الأرضِ إيضاعاً وإرقالاً، وجعلتُ مسافةَ اللقاءِ لمسافة الوداع أَميالاً، وأطلتُ شكرَ الزمانِ على ما يجدّدُه لي من مسرَّةٍ قد خَلَعْتُ بردها، واستطلتُ عهدها، وأنشدتُ:

طربتُ وقد جاء البشيرُ بقربكم ... وذو الشوقِ عند آسم الحبيبِ طَروبُ
وقمتُ إليه راشفاً من ترابه ... ثرىً لك يحلو رَشْفُهُ ويطيب

وما يَبْعُدُ ذلك في قدرةِ الله الذي يُخْرِجُ من الشجرِ الأخضرِ جذوةَ نار، ويهبُ القمرَ كمالاً بعد نقصٍ وسرار.

---

(١) بياض في ص.

(٢) ما يرد بين معقفين حتى آخر القطعة سببه عدم ظهور الكلمات في أواخر الأسطر، في هذه الصفحة.

(٣) ص: وأخبرني، ولعلها أن تقرأ أيضا «وأحزنني».

(٤) صبره: قراءة تقديرية، وصورة الكلمة في الأصول تشبيه «هزة».

٣ ــ وله من أخرى/[١٨٤] يعاتبُ بعضَ القواد[١]:

رأيت فلاناً[٢] عند نظرته لي بالأمسِ قد قَطَّبَ حاجِبَهُ، وزعزعَ مناكبه، وأوسع الغلام من [. . . . . .] ذيل كمّه: فقلت: مالـه؟ أأُنْزِلَ إليه وحيٌ، أم عُصِبَ به أمرٌ ونهيٌ، أم حصل من الخلافةعلى وَعْد، أم أنسيء له الأجلُ مُدَّةَ العهد، أم قلَّ عَقْلُهُ فعقَّ نفسَهُ وظلمها، وجهل مقاديرَ الأشياءِ وقيمها، وأعتقد أنَّ الدنيا طوعُ حكمه، والقطرَ صائبُ فهمه، أم رأى الملائكةَ المتقرّبين تشفَّعُ به، والحورَ العينَ تشكو لاعجَ حبّه، وثمارَ الجنّةِتدلتْ إلى يده، ونارَ جهنم تقتبسُ من زنده، والكوثَر يمدُّ من مَعينه، والسموات مطويّاتٍ بيمينه، والبراقَ قد آمْتُطِيَ لحضرته، والفراقَ [. . .] قوّته، فأُجِبتُ بأنّ شيطانَ ظنّي مارد، وتصوّري فيه ــ أعزه الله ــ فاسد، ولا حقيقةَ لشيءٍ مما توهمته، وسددته من القولِ وأقمته، فقلتُ: إذا لم يكن ذاك فما ذلك؟ قيل: سَفَهُ في الرأي وأفَن، وتغيّرٌ في الطينةِ وعَفَن، ظن أنَّ الأحرارَ مِلْكُ عُهْدته، والعالَمَ مجموعٌ في بُرْدَتِهِ، فحين سمعتُ أَخَذَتْنِي لمولاي الحميّةُ، وهزَّت رأسي الْأَريحيةِ وقلتُ: معاذَ الله، إنَّ دونه في الحَصَاةِ[٣] والكيس بطليموس، وفي الحكمةِ ارسطاليس[٤]، وإن الحكمةَ تُسْتَنْجَحُ من ظنّه، والغيثَ يرشحُ من شَنِّه ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلاَّ بإذنه﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإنه بحمدِ اللَّهِ كما قيل:

خِرْقٌ إذا أفضى السماطُ به كَثُرَ العثارُ وطبِّقَ الزللُ

---

(١) الشق الأيمن من هذه الصفحة أكثره مطموس، ولذلك تعذرت قراءة بعض العبارات، كما أن بعض القراءات المثبتة مما لا أقطع بصحته.

(٢) ص: فلان.

(٣) الحصاة: العقل والرزانة.

(٤) ص: أرطاليس.

وإذا السريرُ سما بقعدته غَريَتْ بظاهِرِ كفِّهِ القُبَلُ

فهناك سكنت الألسنُ الهادرة، ووقفتِ المَرَادَةُ[1] الغادرة، وعاد مَنْ حَضَرَ يُثْني على مولاي ويقرِّظُهُ، ويحملُ من شكره ما يؤوده ويبهظه[2]، فإن كانت هذه الوكالةُ واقعةً منه بالوفاق، فيجعلُ ثوابي عليها انحلالَ العقدةِ من جبينه، وزوالَ التمارضِ من جفونه، وخفضَ الإصبعِ من سلامه، وتركَ النزوة على غلامِهِ[3].

٤ ــ وله من أخرى في مثله:

أرى[4] سلامَ سيّدي قد تقاصَرَ طويلُهُ، وروضَ جوِّهِ قد زاد ذبولُهُ، وماءَ بشرِهِ قد غاضتْ بحورُهُ، ونشاط لقائه قد استمرّ فتوره، وما عهدتُهُ ــ أعزَّه الله ــ تزدهيه الشبهة وتستخفُّهُ، وتصدُّهُ عن كَرَم العهدِ وتكفُّه، وينزلُ المَيْنُ من سمعِهِ بالمكانِ المهيب، ومن قلبه بالقابلِ المستجيب، بل هو يَرْحُبُ إذا حَرِجَ المضيق، ويرطبُ وقد عَصَبَ الريق، وتمرُّ به المُحْفِظَاتُ وهو راضٍ، وتوقظُهُ المغايظُ وهو متغاضٍ.

إذا أمرته مِرَّةٌ من حفاظِهِ بسوءٍ نهاهُ خُلْقُهُ البارِدُ العذبُ

فما الذي أعاد فَلَقَهُ غاسقاً، وصريحُهُ ماذقاً، فإن يكُ عن مللٍ[5] فؤادِهِ وتشعُّبِ وداده:

---

(١) ص: الموادة؛ والمرادة: العتو والتمرد.

(٢) ص: وينهضه.

(٣) ص: أعلامه.

(٤) ص: أي.

(٥) ص: ملكه.

فكم أخٍ غيّره يومَيَ المقبلُ عن أمسي به الذاهبِ
ملَّ فلم يعطفْ لحبِّ الصبا الحاني ولا حقِّ العلا الواجب

٥ ـ واستقرّت الوزارةُ لبعض أصحابه ثم توقف الأمرُ بعدُ فيها فكتب إليه:

الخِيرةُ ـ أطال اللَّهُ بقاءَ سيدنا ـ تجيءُ من غيرِ الأمرِ المختار، و[هي] مخبوءَةٌ تحت أستارِ الأقدار، فكمْ سببٍ اجتمعتْ فيه شواردُ الآمال، ولبسَ ظاهِرُهُ مسحةً من الجمال، كان المكروهُ منظوماً في تاجه، منطوياً في أثنائه وأدراجه، وآخر ظهر للنّاسِ بلونٍ شاحبٍ، ووجهٍ قاطب، كان ضامناً لابتسام الزمن، وكافلاً بالأجمل الأَحْسَنِ، وبهذا أدّب تعالى عباده، وقال في الكتاب المكنون ﴿وعسى أن تَكْرَهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، وعسى أن تُحِبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم واللَّهُ يعلمُ وأنتم لا تعلمون﴾ (البقرة: ٢١٦) فلمح أبو عبادة هذا الأسلوب فقال في معناه[١]

والشيءُ نُمْنَعُهُ يكونُ بفوتِهِ[٢] أحظى[٣] من الشيء الذي تُعْطَاهُ

وإذا تُصُفِّحَتِ الأمورُ بعينِ البصيرة، ونُظِرَتْ بالخواطر المستنيرة، ونُفِذَتْ بالألبابِ الصَّيْرَفِيَّة لا الزائفيَّة، عُلِمَ أنَّ هذه الرتبةَ زليقةُ الصراطِ، سريعةُ الانحطاط، يعلو الإنسانُ صهوتها ثم هو بعدُ راجل، ويتجلَّى بها وقتاً ثم هو مسلوبٌ عاطل، وما لم يُوسَمْ بها فالخطط تعتقبُهُ، والمنازل ترتقبُهُ؛

---

(١) ديوان البحتري: ٢٤٠٣، وقبل البيت:
والعيش ما فارقته فذكرته لهفاً وليس العيش ما تنساه
ولو آني أعطي التجارب حقها فما أردت لرجوت ما أخشاه

(٢) ص: يمنعه: يكون بقربه، والتصويب عن الديوان.

(٣) الديوان: أجدى.

أجلْ، وهذه الدرجةُ كلما خبرت الْأَقوامُ، وتمادتِ الأيّام[1]، غاضَ معينها، وزاد حنينها، فمنها الكمدُ، ومن سيدنا الصَّيَدُ، ومنها الكَلَفُ، ومنه / [١٨٥] التّيهُ والصَّلَف، حتى إذا نَغِلَ الأديم، ورُعِيَ الهشيم[2]، وتشاقَّتِ[3] الخططُ، وجار الحكمُ وقَسَطَ، دُعِيَ سيدنا لِشعْبِ المنصدعِ، وَوَصْلِ المنقطع، وإيجادِ الممتنع، فهناك يَقومُ بالأَمر، ويسهل الحَزْنُ والوعر:

مُباركٌ[4] تطردُ اللأواءَ رؤيتُهُ ... طردَ الظلامِ فرندَ البُلْجَةِ الواري[5]

وزيرُ مُلْكٍ خَلَتْ[6] في عدلِ سيرته ... صحيفةُ الملكِ من إثمٍ وأوزارِ

يذبُّ عنه وقد رِيعَتْ جوانبه ... برأيه المكتسي أو سيفِهِ العاري

٦ ــ وكان يوماً المجيدُ بمجلسِ الْأُنْسِ، ودَعَوْا بعضَ أصحابِ القلانس فلم يحضر لأجلِ الغناءِ فكتب إليه:

عجبت لمولاي كيف أَسْنَدَ في التخلّفِ إلى عذرٍ هَلْهَالٍ، وسلك طريقاً صعبةَ المجال، وجعل المانعَ له من الحضور أمراً يقوّي على الهموم، ويَقُوتُ النفوسَ فكيف الجسوم، ويمتزجُ بالقلب امتزاجَ تامورِهِ، ويُطْلِقُ شكائمَ بهجتِهِ وسروره، فإن يكُ ذلك لدينٍ وثيقٍ، وخُلُقٍ بالتقوى خليق، فما بلغ مولاي من

---

(١) ص: الأنام.

(٢) نغل الأديم: فسد الجلد؛ ورعي الهشيم: مثل على اللجوء إلى غير ذي الكفاية لعدم وجود من هو كفؤ. كما قال الشاعر:

ولكن البلاد إذا اقشعرت ... وصوّح نبتها رعي الهشيم

(٣) ص: وساقت.

(٤) ص: منازل.

(٥) فيه قلب، إذ حقه أن يكون طرد فرند البلجة الواري للظلام.

(٦) ص: جلت.

حِفظِ الشريعة إلى هذه التربة، وُضِعَ قِدْرُهُ بعدُ على هذه الهضَبة[1]. وإنما هو الآن يُحْكِمُ أمراً، ويصيد بها إذا تعقَّلَ عمراً[2]، وإن كان لخوفٍ[3]، من ثقيل، وحذرٍ من غلول، فما كان هناك إلاَّ مَنْ يَفْرقُ السَّوْرَةَ[4]، ويسترُ العَوْرَةَ، فإن حضر طُويَ هذا البساط، وتوفَّرَتْ للمسرَّةِ أقساط. وإن تفادم وتغاتم دلَّكَ[5] عليه شرحُ أمورٍ قديمة، وظهورُ أنباء مكتومة، وجاءنا من حديثِ البستانِ الحيري ما يَغُضُّ من الطيالسِ والقلانس، ويُنْسي يوم الغبراء وداحس.

٧ ــ وله من أخرى في مثله:

لمَّا هجر مولاي مجالسنَا في الجامع وأَوْحَشَها[6]، وأَطَالَ إليه ظمأ النفوس وعَطَشها، وأخلى مكانَهُ من طلعته التي تُطْلِعُ علينا من السرورَ ما غرب، وتؤْنِسُنا بغرائِبِ الأُنْسِ والطَّرَبِ، وتصرَّفَ فِكْري في ما اقتضى ذلك فلم أَعْثُرْ على أَمْرٍ عاذر، ولا ظفرتُ بسبب ناصر، ذهب وهمي إلى أنه استحدث ودوداً، واستطوفَ [خِلاًّ] جديداً، فترك هٰذا الأنام[7] حتى ينقعَ أُوامَهُ، ويبرّدَ غرامه، وحين ثَوَتْ هذه الظِنَّةُ في نفسي أَنْفَذْتُ فلاناً لاستيضاح الخبر، فحكى أنه ألفى مولايَ في الطبقة الدهيشية(؟) فَدَهِشَ لما رآه من مجلسٍ حسنٍ، ومقامِ صبوةٍ وَفِتَنٍ، وأمورٍ بديعةٍ، وأحوالٍ وسيعةٍ، وفاكهةٍ

---

(١) كناية عن أنه لم يصبح بعد مشهوراً.

(٢) ص: إذاً لفعل؛ ولعلّ معناه: إنه يدبر خطة لنيل منزلةٍ يصبح بها عمرو رغم دهائه دونه. ولفظة «يصيد» قد تقرأ «يصير»، رغم وضوح الدال في الأصل.

(٣) ص: للخوف.

(٤) يعني يتجنب سورة السكر، أي لا يعربد: وفي ص: لعدف السررة.

(٥) ص: إن تعادم وتفاتم وذلك؛ والتفادم: التظاهر بالفدامة، والتغاتم: التظاهر بالغتمة، أي العجمة.

(٦) ص: وأوحشنا.

(٧) ص: هذه الأيام.

لا مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ، وظبيٍ قد كَحَّلَ بالسِّحْرِ لَحَظَاتِهِ، وأطلق العقاربَ على وَجَنَاتِهِ، ونظم السلوك في ثغره، وأنبتَ ثَمَرَ الصِّبَا في صدره يدير على مولاي كأساً:

إذا أَخَذَتْ أطرافُهُ من بحورها ... رأيتَ اللجينَ بالمدام يُذَهَّبُ
كأنَّ بخدَّيْهِ الذي جاءَ حاملاً ... بكفَّيه من ناجودها [بات] يُقْطَبُ

فطفقتُ متعجّباً لما وصفه المخبر، وحمد[ت] الله على صِدْقِ الحسِّ والتقدير، وعذرتُ مولاي في التخلفِ عن الجامعِ، واستيفاءِ النَّهْلَةِ من هذه المشارع، وأوْسَعْتُهُ ملاماً على التفرُّدِ بهذه الحسنة، والفاحشة المتبيِّنة، دون الشيخ أبي الحسن، الذي ينحاز في فعله الحسن، ويضلُّ في أَدْنى ذلك السَّنَنِ، اللَّهُمَّ إلاَّ أن يكونَ خاف أن يجريَ هذا الصديقُ على طاعةِ شيطانِهِ، والبِذاءِ على إخوانه، والتدحرجِ عن موضعه ومكانه، ليتأبَّطَ في الليل شرّاً، ويسيرَ إلى حيث تسكنُ الغزلانُ سِرّاً، وقد قرَّت أعضاؤُهُمْ نوماً وسُكْراً؛ ومع هذا فأُوثِرُ من مولاي أن يُقْبِلَ على شانِهِ، ويخفضَ قليلاً من عِنَانِه، فإنَّ الجاهَ صَدْعُهُ لا يُجْبَر، والملقي بيده إلى التهلكة لا يُعْذَر، وقد شببنا عن هذه الحال، فيحسنُ المتاب، ويسمحُ بردّ الجواب[1].

٨ ـ وله من أخرى:

لو رآني مولاي وقد أُرْشِفْتُ الخمرة فوجدتها مرارةً تُذَمُّ ولا تُحْمَدُ، وتثيرُ كامنَ الحزن والكَمَد، وتصفحتُ النِّدامَ فعدمتُ منهم أُنْساً عن الناظر دونَ الخاطر، وعدم تلك المحامد والمآثر. فأمَّا الماءُ فاللَّه يعلمُ أني أتجرَّعه ولا أكاد أسيغُهُ شوقاً إلى تلك الخلال التي هي أنقى منه أديماً، وأرقُّ نَسيماً،

(١) ص: وقل شيئاً من هذه الحال.. ويسمح برب الحراب.

وأمسكُ للنفوس رَمَقاً، وأكثر لذوي[1] الحاجات تدفقاً:

خلائقُ: إمَّا ماءُ كرم[2] ترقرقاً أُغادَى به أو ماءُ مُزْن[3] تصفَّقا
كأنَّ الصِّبا جَرَّتْ عليه ذيولَها أصيلاً وفأرُ المسكِ عنها تفتَّقا

وأما ارتياحي إلى الموالي السادةِ ـ حَرَسَ الله مُدَدَهم، وكثَّر بساحةِ المكارم عَدَدَهُمْ ـ فارتياحُ مَنْ رحل وترك قَلْبَهُ عندهم، وإني وإياهم لكما قال [الأول][4]:

لم ألقَ بعدهمُ قوماً فأخْبرَهم إلّا يزيدهُم حبّاً إليَّ همُ

وعلى القاضي السيد منهم السلام [١٨٦] خصوصاً، لأنّي أعلمُ عن

---

(١) ص: ذوي.
(٢) ص: إما ماؤكم.
(٣) ص: موت.
(٤) سيذكر ابن بسام في ما يلي أن قائل هذا البيت هو زياد بن منقذ الحنظلي أخو المرار العدوي: ونسبه البغدادي في الخزانة (٢: ٣٩٤) إلى المرار نفسه، وروايته:
وما أصاحب من قوم فأذكرهم إلا يزيدهم حباً إليّ هم
وزعم الحصري أن المرار، هو نفسه زياد بن منقذ، ونقل ذلك البغدادي عنه (٢: ٣٩٥)، وجاء في بعض أصول زهر الآداب أنه أخو المرار حسبما ذكر ابن بسام، وروى البيت كما جاء في الذخيرة (انظر زهر الآداب: ١٠٦٤)، قال البغدادي (٢: ٣٩٦): وزعم أبو تمام في الحماسة أن القصيدة التي منها البيت لزياد بن حمل بن سعيد بن عميرة (الحماسة رقم: ٥٧٧) وزعم الأصفهاني في الأغاني (١٠: ٣٣٠)، والخالديان في شرح ديوان مسلم بن الوليد أن هذه القصيدة للمرار بن سعيد الفقعسي، والصواب أنها لزياد بن منقذ العدوي، قاله ياقوت في معجم البلدان (مادة: صنعاء) قلت: ما ذكره عن الحماسة ثابت عند التبريزي، وفي شرح المرزوقي: قال زياد بن حمل، وقيل زياد بن منقذ، وكذلك عند البكري، وفي شرح الأمالي: ٧٠، وانظر العيني ١: ٢٥٧، وشرح شواهد المغني: ٤٩، وحاشية البكري: ٧٠؛ وكان من مناسبة القصيدة أن زياد بن منقذ رحل إلى صنعاء فلم يحمدها، فقال ذلك الشعر يذمها ويتشوق إلى وطنه.

صورةِ حاله في هذا الشهر، واحتباس يده عن كأسٍ يحلبها، وفمه عن قبلةٍ يَسْلُبُها، وقدَمِهِ من الحانة الخمرية، وزيارةِ الغيد الحورية، فإذا حُلّتْ بمشيئة الله أنشوطةُ هذا العِقال، وأطلعَ الله سبحانه عليه هلالَ شوال، فأَنِسَ وسْطَ القوم، وأخذ بثأرِهِ من أيام الصوم، فليذكرْ هناك صديقاً لم يَنْسَهُ وقد ضرب البينُ رواقَهُ، وأَطالَ الفراقُ اعتياقه. واؤمل من الله تعالى أن يسهّلَ من قُرْبِ الدار ما يُعيدُ سِلْكَ المسَرَّةِ منظوماً، والشملَ بحضرته السامية ملموماً، فهي الحضرة: تهبُّ منها رياحُ العلاء، وتحطُّ بها حقائبُ المدح والثناء، وتُبدعُ في إسداءِ المِنَح والآلاء.

والبيت الذي أنشده لزياد بن منقذ الحنظلي أخي المرار العدوي.

قال ابن بسام[1]: وأراه أوّلَ من استثار معناه، ومنه قول الآخر مما أنشده حبيبٌ في حماسته، ويزعم دعبل أنّ هذا الشعر له[2]:

ولما أبى إلا جماحاً فؤادُهُ ... ولم يَسْلُ عن ليلى بمالٍ ولا أهلِ
تسلى بأخرى غيرها فإذا التي ... تسلى بها تُغْري بليلى ولا تُسلي

وكان[3] ابن عرارة[4] السعدي مع سَلْمِ بن زياد بخراسان، وكان له مكرماً، فتركه وصحب غيره فلم يحمدْ أمرهُ، فرجع إليه وقال[5]:

---

(١) يعتمد ابن بسام في أكثر هذا التعليق على زهر الآداب: ١٠٦٤ ــ ١٠٦٥.

(٢) الحماسية رقم: ٤٩٧ (١٢٩٢) في شرح المرزوقي، وشرح المضنون: ٢٤٩، والزهرة: ٣٤، وأمالي القالي ١: ٢١٠، والحماسة البصرية٢: ١٧٣، وديوان ابن الدمينة: ٩٤، واللآلي في شرح الأمالي: ٥٠٢ (للحسين بن مطير)، وديوان دعبل (تحقيق الأشتر): ٣١٩، وديوان الحسين بن مطير (جمع محسن غياض): ٧٠، وفي المصدرين الأخيرين تخريجات أخرى.

(٣) النقل عن زهر الآداب: ١٠٦٤.

(٤) زهر الآداب: ابن أبي عرارة.

(٥) هما في زهر الآداب، والأول منهما في عيون الأخبار ٤: ٤ لنهار بن توسعة، وأعتاب =

عتبتُ على سَلْمٍ فلما فقدتُهُ ... وجرَّبتُ أقواماً بكيتُ على سلمِ
رجعتُ إليه بعد تجريب غيره ... فكان كبرءٍ بعدَ طولٍ من السقم

وأنشد المبرد[1]:

أخٌ ليَ عاداه الزمانُ فأصبحتْ ... مذمَّمةً فيما لديه المطالبُ
متى ما تُذَوِّقْهُ التجاربُ صاحباً ... من الناسِ تَرْدُدْهُ إليكَ التجارب

وأنشد أيضاً[2]:

حياةُ أبي العباسِ[3] زينٌ لقومِهِ ... لكلِّ امرئٍ قاسى الأُمور وجرَّبا
ونعتبُ أحياناً عليه ولو مضى ... لكنَّا على الباقي من الناسِ أعتبا

وقال مسلم بن الوليد[4]:

حياتُكَ يا ابن سعدانِ بن يحيى ... حياةٌ للمكارمِ والمعالي
جلبتُ لك الثناءَ فكان عفواً ... ونفسُ الشكرِ مُطْلَقَةُ العِقَالِ
ويُرْجعني إليك وإن تناءَتْ[5] ... دياري عنكَ تجربةُ الرجال

ويتطرَّفُ هذا المعنى أيضاً قولُ ابنِ الرقاع[6]:

= الكتاب: ١٧١ (دون نسبة)، والمستطرف ١: ٢٣٣ لابن عرارة، وبهجة المجالس ١: ٥٧ (دون نسبة).

(١) زهر الآداب: ١٠٦٥ ونسبه للبحتري، ولم أجده في ديوانه.

(٢) زهر الآداب: ١٠٦٥، والكامل ٤: ١٢٦، والثاني في عيون الأخبار ٤: ٤، والعقد ٣: ٤٥٥، وبهجة المجالس: ٦٥٧.

(٣) الكامل: أبي العوام.

(٤) زهرالآداب: ١٠٦٤ ــ ١٠٦٥، والكامل ٤: ١٢٦، وديوان مسلم: ٣٣٦، والثالث في المستطرف ١: ٢٣٣.

(٥) الكامل وزهر الآداب: وإن نأت بي.

(٦) البيت في الشعر والشعراء: ٥١٧، وتمام المتون: ٣٣٩ ــ ٣٤٠، وقد أورده ابن بسام في القسم الثاني من الذخيرة: ١١٦.

وإذا نـظرتُ إلى أميـري زادنـي كـلفـاً بـه نـظري إلـى الأمـراءِ

ومنه قول الرضي[1]:

مـا سـاعـدتني الليـالي بعـدَ بينكمُ إلاّ ذكـرتُ[2] ليـالينـا بـذي سَلَمِ
ولا استجـدَّ فؤادي في الزمـانِ هوىً إلاّ ذكـرت هـوى أيـامنـا القُـدُمِ

٩ ــ ومن أخرى لـه عن الوزير الناصريّ[3] إلى بعض القبائل:

معلومٌ أنَّ الله تعالى قد يأذَنُ للنِّعَمِ إذا خُصَّتْ بالشكرِ أن تستدني البَعيدَ القصي، وتستأنسَ النافرَ الوحشي، وإذا قُرِنَتْ بالكُفْرانِ يرحلُ منها القاطنُ، وتستوحِشُ المعاطن؛ ووصل إليَّ ما كان منكم من الانحرافِ عن الحضرةِ السامية والتظاهرِ بالخلاف عليها، فتحقَّقْتُ أنَّ الشيطانَ قد أعملَ فيكمْ كَيْدَهُ، واستنفذَ في إضلالكم قُوَّتَهُ وَأَيْدَهُ، وأَوْضَعَ بكم في مراعي وَبِيَّة، ودبَّ إليكم من طريقٍ خَفِيَّةٍ، فزيَّنَ لكم غيرَ الحَسَنِ، وأوطأَكُمْ الجانبَ الأَخْشَن، ووسمكم في أَحياءِ العربِ بإخفار الذِّمَمِ، وكُفْرانِ النِّعم. وأقولُ ما يجبُ أن يفهم: أَلَمْ تصِلوا إلى هذه البلادِ فتعرفوا[4] بها العيشَ الوحشي، وتحلُّوا فيها محلَّ الغريبِ الأجنبيِّ، وتعيشوا عيشَ الغرثان الخميصِ، وتخَطَّفَكُمُ العربُ تخطُّفَ الأَجدلِ للقنيص، فجمعتِ الحضرةُ شتيتكم، ووصلتْ مبتوتكم، فليتَ شِعْري ما الذي سوَّلَتْهُ لكم أوهامُكُمْ، وحدَّثتكم به أَحلامُكُمْ؟! وايمُ الله

---

(١) ديوان الرضي ٢: ٢٧٥، وقد ذكر ابن بسام أبياتاً من هذه القصيدة ١: ٢٣٦٥، ٢: ١٤٠، ٣٧٩.

(٢) الديوان: ما ساعفتني... بينهم إلاّ بكيت.

(٣) لم يتوجه لي على وجه الدقة من هو الوزير الناصر، ومما يزيد الأمر تعقيداً أنه يذكر «اللواء الحمداني» في هذه الرسالة، ولعلّه ناصر الدولة الحمداني الذي استولى على أكثر أمور مصر أيام المستنصر، وقتل سنة ٤٩٥.

(٤) ص: فتعدموا.

لئنِ انقلبتم على الجَنَابِ الناصريِّ، وانحرفتم عن اللواءِ الحمداني، لتصبِحُنَّ أكلةً للعربِ، يَحُطُّونَ أعلامكم، وَيُزَلْزِلُونَ أقدامَكُمْ، ويحمونكم ورودَ الماءِ المباح، ويمنعونكم حَلاوةَ النَّعم المُرَاحِ. فراجِعُوا حلومكم العازبةَ، وتجافوا عن ذنوبكم اللازبة، وارْجِعوا[1] إلى من آمتدّ عليكم ظلُّهُ والزمنُ هجير، وصفا لكم وِرْدُهُ والعيشُ كدير، فلو قد فارقتم جَنَابَهُ الفسيحَ لتفرقتم في الأرض شَيِعاً، ونبتْ بكم مقرّاً ومَضجعاً، وعثرتم عثرةً لا يقالُ لها [لَعَا]. وقد قلتُ ونصحتُ، وبيَّنْتُ وأَوْضَحْتُ، وسلكتُ مسلكَ الحَدِبِ الشفيق، وبقي أن يمنحَ اللَّهُ حُسْنَ التوفيق.

١٠ ــ ومن أخرى:

ما آعتَمَدهُ سيِّدُنا بالأمسِ مع عَبْدِهِ من الإكرام خارقٌ للقضيَّةِ العادلة[2]، ومحسوبٌ في الأَوْضَاعِ الحائلة، وذلك أَنْ كان مما [لا] يرفعُ الصيتَ وَيُبْعدُهُ، وَيُعْلي الجَدَّ ويُسْعِدُهُ، وَيُشْجي الحاسدَ ويُغِصُّهُ، ويهيضُ جناحَ العدوِّ [١٨٧] وَيَقُصُّهُ، فإن الرضى به [يعد] إفصاحاً بالفهم القليل[3]، ونكوباً عن محجّةِ التحصيل، وما إخالُ سيِّدنا يَرْضَى لعبدِهِ بالدُّخولِ في هذا الحيِّزِ، والخروجِ عن سِمَةِ المحقّقِ المميّز، وليس يحبُّ ــ وإن اشتهر بالعلم شَغَفُهُ، وزاد [على] ذوي الآداب حُنُوُّهُ وتعطُّفُهُ ــ أن يشيمَ لهم حَدَّه، ويهضم علاه وجهدهُ، فإن استهام بحب المآثر والمساعي، وقويتْ منه في إكرام أوليائِهِ الدواعي، وأنشدَ عند قراءة هذا الفصل:

---

(١) ص: وتصاموا عن ذنوبكم الكاذبة وراجعوا.

(٢) ص: العادية.

(٣) إفصاحًا بالغيم العليل.

(٤) ص: وجحده.

* لقد حِكْتَ الملامَ لغير داعِ[1] *

ثم تجاوزتْ حِمَّتُهُ النهجَ البعيدَ، وفرع ذؤابةَ الطَّودِ المشيد، واستحسن قولَ الوليد:[2]:

يُـنْـزِلُ أهـلَ الآدابِ منزلـةَ الـ ... أكـفـاءِ إن نـاهَـزُوه[3] فـي أَدَبِـهْ
لـم يُـزْهِـهِ عـنـهـمُ وهـمْ سُـوَقٌ ... في العين وطءُ الـملوكِ فـي عَقِبـهْ

فعبدُهُ يسألُ أن يختصرَ عليه في الإكـرام، ويقفَ بـه دون ذلك المقـام، فاللمحةُ في البدرِ تضيءُ السبيلَ، والقطرةُ من الماءِ تبرّدُ الغليل.

١١ ــ ومن أخرى:

معلومٌ أنَّ الزمانَ قد عادانـا بِعُجابـه[4]، ونهَشنا بـأنيابـه، وأدار علينا من صرُوفِ أحداثِـهِ كؤوساً، وجعـل كلَّ غـريبٍ لنا أنيسـاً، ولما خـرج عن حُكْمِ العـادةِ، وسلكَ في مـولاي غيـرَ الجـادَّة، وأودعـه عـوارفَ يضيقُ عنهـا بـاعُ الكتاب، وقذف إليه أقاصي خـطوبِ الخطاب، علمنـا أنه قـد أصاب رُشْـدَه، وأَوجبَ حمـده، وأَطلـعَ شمسَ النهـارِ من مشـرقهـا، ووضـع تـاجَ الـريـاسـةِ على مَفْرِقِها.

١٢ ــ ومن أخرى:

خلَّد اللَّهُ أيامَ الحضرةُ الأفضليّةِ[5]، ما فَضَلتِ الأسماءُ حروفاً، وتقدَّمَتْ واوُ العطفِ معطوفاً، ولزمتِ الأفعالُ اشتقاقاً وتصريفاً:

---

(١) ص: واع.
(٢) ديوان البحتري: ٢٤٣.
(٣) الديوان: شاركوه.
(٤) ص: بعجائبه.
(٥) يعني بالحضرة الأفضلية: الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي، تولّى الوزارة حين مرض =

يُلْفَى عليها الحمدُ موقوفاً وفي ... عَرَصاتها شُمُّ الملوكِ وقوفا
وتعيد سطوتُهَا سماءَ عداتها ... كِسَفاً وبدرَ سُعُودِهِمْ مكسوفا

ولَجَ سمعَ العبد في هذه الساعةِ نبأُ جمحَ عن أقماعِه، وتصامَمَ عن استماعه، تعاشياً عن صُبْحِهِ المبين، وتغلياً للشكِّ على اليقين، وخوفاً على العزِّ الشامخ أن يُصْحِبَ شَموسُه، والمجد [الباذخ] أن تكوَّرَ شُموسُه، والمحامدِ أن تُنْثَرَ كواكِبُهَا، والمناقبِ أن تَتَزَلْزَلَ مناكبها. ولما تلاهُ الخبرُ بما أصمتَ ناعقَهُ، وكذَّبَ بارقَهُ، ونطق بأنَّ الجسم الشريفَ قد التفعَ شملةَ الإبلالِ، وعاد مزاجُهُ إلى الاعتدال، أطال العبدُ في التُّرْبِ تعفيرَ خدِّه، وبالغ في شُكْرِ الله وَحَمْدِهِ، فيا لها نعمةً عَدَلَتْ بها أحكامُ الزمانِ الجائرة، واهتدت ركائبُ الآمالِ الحائرة، وأصبحَ الملكُ المستنصريّ سائلَ الغرة، ضاحكَ الأسرّة، [والحضرة] قد تمكنت في خطابها، وما نزعت بُرْدَ شبابها، وامتدَّتْ بعدَ القُلُوصِ أفياؤُهَا، وأضاءَتْ في ظُلُماتِ الخطوبِ آناؤها:

والـلَّهُ أكـرمُ أنْ [يعـذِّبَ مـهجـةً] ... غُـذِيتْ بـأخـلاط العـلا أعضـاؤهـا
فإذا طمت جسم الخطوبِ [عـرامةً] ... [أربـى على] فيض الحيـاء حباؤهـا
لـو كـان يُنْكِـرُ ملكَهَـا [رُتَبَ] العـلا ... أحـدٌ لكـان شهـودَهـا أعـداؤُهـا
ثـابتْ بـك الأيّـامُ عن جهـلاتهـا ... وتـوقَّـرتْ من أهلهـا سُفَهـاؤهـا
وبعـدلِ حُكْمِـكَ زالَ عنّـا ظلمهـا ... وبنـورِ مجـدك أشـرقتْ ظلماؤهـا
نـارُ اعتـزامـك مـا يبـوخُ ذَكـاؤهـا ... وسمـاءُ عـزِّك مـا تغيبُ ذُكـاؤهـا[1]

= والده سنة ٤٨٧ زمن الإمام المستنصر، وظل على الوزارة في أيام المستعلي، ثم الآمر إلى أن اغتيل سنة ٥١٥ (الإشارة إلى من نال الوزارة: ٥٧ ــ ٦٤، وابن خلدون ٤: ٧٠)، فإن كان ابن أبي الشخباء قد توفي سنة ٤٨٦، فهذه الرسالة مما أنشأه في الأفضل قبيل توليه الوزارة، يهنيه بإبلاله من مرض.

(١) هذا البيت والتالي له ورد في الخريدة: ١٥/أ.

وعِـراصُ فَضْلِكَ لم تضقْ أرجـاؤُهـا وعفـاةُ جـودِكَ مـا يخيبُ رجـاؤهـا

فـالحمدُ لله الـذي منـح الأمّة من نعمـةٍ أصبحت النوائبُ بهـا قـد دَرَجَتْ أيامها، وَهُدَّتْ من المخاوفِ أعلامها[1]، والبخلُ قد هُدِمَ بنيانُـهُ المرصـوص، والكـرمُ قـد ريشَ جنـاحُـهُ المقصـوص. ولم يبقَ لـه سحـاب إلا وهـو يُغْـدِقُ ويَهْمَـع، ولا منادىً إلاّ وهو يلبِّي وَيَسْمـع[2]:

يـا مـاجـداً نَصرَ الشـريعـةَ حيثُ لا بـيضٌ تُـشـام ولا ذوابـلُ تُـشْـرَعُ
والنَّصبُ منـصـوبُ اللواء وشـائـعٌ فـي أهـلِهِ بُـغْضُ الـذي يـتـشيّـع
عَمَّت عـوارفُـهُ[3] فمـا من مـوضـعٍ إلا ونـائـلُهُ إلـيـه مُـوْضِعُ
سـائـلْ بـه ودمُ الفـوارس سـائـلٌ يُسقـاه ظـمـآن التـرابِ فـينـقـع
واليـومُ قـد كتبتْ[4] سنـابـكُ خيلِهِ نَـقْعـاً جبينُ الأُفقِ منـه مُـقَـنَّـع
فهنـاك تلقى الصـدر لا متـضـايقٌ والـرَّوْعَ لا نخب الـضلوعِ مـروَّعُ
والـشَّمْسُ تـهـوى أنْ تقبّـلَ كفَّـه فـتُـذَادُ بـالسُّمـر اللدانِ وتـمـنـع
فـاقنـعْ بمـا ملكتْ يـداك من العُـلا إن كنتَ بـالشهب الثـواقب تقـنـع

فـأمـا حـال العبـد فعلى الحـالـة التي يؤمَّـلُ من الحضـرةِ العليـة كشفَ ضبابها، وانتكاثَ أسبابها، وكأنه من العبوديـة يقتضي ألا يُغِبَّه مُـزنُ مكارمهـا، ولا تتجـاوز عنه جفـونُ مراحمهـا، فيصبـح وقـد حفَّتْ بـه الشـدائـد/ [١٨٨] وساقت عنه المصادرُ والموارد،

---

(١) ص: وصدت في. . . عيانها.
(٢) الأبيات ٣ ــ ٧ من هذه المقطوعة وردت في الخريدة: ١٥/أ ــ ١٥/ب.
(٣) الخريدة: مواهبه.
(٤) الخريدة: نسجت.

أتتركني يا دهرُ في البؤس مفرداً ومالِكُ رِقّي مُفْرَدٌ فيكَ واحدُ
إذا هِمَمُ الأقوامِ شابَتْ وأظلمتْ فهمّاتُهُ بيضُ الوجوه خرائدُ
فيا قاضي الدِّين الذي قام حَافظاً حِماهُ وكلٌّ واهنُ العزم[1] قاعدُ
ومن سادَ أهلَ العصر طُرّاً وألقيتْ له في عِراص الفرقدين وسائد
أناديك في نادٍ يحفُّ بيَ الرَّدَى وتنزلُ فيه النازلاتُ الشدائد
تخاطبني فيه الخطوبُ فصيحةً ويُسهرُ عيني ضيّقُ العين باردُ
يطارحني صوتاً، سروريَ ناقصٌ إذا هو غنّاني وهمّيَ زائد

وللحضرة العالية الأفضلية، الرأيُ العالي في انتياش العبدِ من هذه الغماءِ، وكأنَّ ما تهبُ له من العنايةِ زكاةٌ عما ملأها الله من رزق الزمان، ومكَّنَهُ لها من قواعد العزِّ والسلطان، وتقرباً إليه جلَّ اسمه إذا انشقت [السماء] فكانت وردةً كالدهان.

قوله: فهناك تلقى الصَّدْرَ... البيت، كقول المعتمد بن عباد[2]:

وأردتمُ تضييقَ صَدْرٍ لم يَضِقْ والسُّمْرُ في ثُغرِ الصدورِ[3] تَحَطَّمُ

وقال المعتمد أيضاً في صفة [مجلس]، من شعر تقدَّمَ إنشاده[4]:

هذي المدامُ وهذا النقلُ من جَسَدي غنّ لنفسكَ أشعاري بألحاني

---

(١) ص: الحزم.
(٢) ديوان المعتمد: ٦٧، وقلائد العقيان: ١٦، والذخيرة ٢: ٥١.
(٣) القلائد: النحور.
(٤) لا أراه تقدَّم في الذخيرة، كما أنه ليس في ديوان المعتمد.

١٣ ــ وله من أخرى:

أطال اللَّهُ بقاءَ الحضرةِ السامية الصارميّة[١]، ما عُظِّمَ رجب في الإسلام، وولجَ الضياءُ في الظلام، وَوُشِيَتِ الطروسُ بأسنة الأقلام:

تَرِدُ العُفاةُ شرائعاً من جودها ... نُسِخَتْ بهنَّ شرائعُ الإعدامِ
وترى قلائدَ حَمْدِهَا وثنائها ... منظومةً بترائبِ الأيام
وإذا عَصَتْ نُوَبُ الزمانِ وخالفتْ ... وقفتْ لديكَ مواقفَ الخدّام

إذ كانت أيامُ الحضرةِ العاليةِ شاهدةً لها بجودٍ يريشُ أجنحةَ الكرامِ المقصوصة[٢]، ويقومُ بفرائضِ المجدِ المنصوصة، وحلمٍ تُطْلِقُ القدرةُ عنانَهُ، ويستعيرُ الجنَانُ رُجْحَانَهُ، ووفاءٍ يعلّمُ الدهرَ حفظَ العهود، وينقلُ طَبْعَهُ إلى الخلقِ المحمود، ورأيٍ يقطعُ والسيوفُ مُغْمَدَةٌ، ويسري والعُوذُ العتاقُ مقيَّدة، وبشر يُخْجِلُ ضوءَ الشارق، ويضيءُ في جبينها إضاءة البارق، وجودٍ[٣] تأمُر مكارمُهُ الزمانَ لينتصرَ بالصارم ذي الفضائل، لا الصارم ذي الحمائل، وينتجعَ الأنواءَ المظفرية، فيَهتِنُها لها بالشهرِ والسنة حفظاً للسنَّة المرتّبة، لا اعتماداً على القضيّةِ المستوجَبَةِ، والله تعالى يديمُ أيّامَهَا الزاهرة، دوامَ نِعَمِها المتظاهرة، فإنّ ذلك يَرْوِيه القريبُ والشاطِنُ[٤]، ويتمثَّلُ به المقيمُ والظّاعِنُ:

ومرَّتْ بكَ الأيامُ وهي كوافلٌ ... بنَيْلِ الذي ترجوهُ منها ضوامنُ

---

(١) يريد بالحضرة الصارمية: صارم الدولة بن معروف، وقد أورد ياقوت (٩: ١٧٥) رسالة أخرى من ابن أبي الشخباء إليه، افتتحها بقوله: أطال الله بقاء الحضرة الصارمية، يجري القدر على حسب أهويتها، ويعقد الظفر بعزائم ألويتها... إلخ.

(٢) ص: المخصوصة.

(٣) ص: ووجد.

(٤) الشاطن: البعيد النائي.

فيا صارماً أثنتْ عليه عُدَاتُهُ ... وأَصْدَقُ مَنْ يُثْني العدو المباين
وفتْ بشروطِ الجودِ في المحلِ كفُّهُ ... ومزنُ السَّحابِ الجَوْدِ للأرضِ خائن
يُضيفُ إلى أنعامِهِ بشرَ وجهه ... كما جمع الحكمين في الحجِّ قارِنُ
ولولا الذي قدمتُ من حسناته ... لما وُجِدتْ للدَّهْرِ فينا محاسن
فلا سِرُّه ما بين عينيه ظاهرٌ ... ولا حقدُهُ ما بين جنبيه كامن
صفتْ لك من صَفْوِ السعودِ مواردٌ ... وجادَتْ عليك المُعْصِرَاتُ الهواتن
تُقَسِّمُ طولَ الدهرِ أمناً وخيفةً ... فمالك مرعوبٌ [وعِرْضكَ آمن]

١٤ ـ ولـه من أخرى:

أطال اللَّهُ بقاءَ الحضرةِ السَّاميةِ معمورةً بوفود السعادة ديارُها، مشـ[ـدودة إلى] قَصْدِها أنساعُ العِير وأكوارُهَا، مفلولةً عنها أنيابُ النُّوَبِ وأظفارُهَا، ولا زالَ من مدَّ الظلَّ ولو شاء جعله ساكناً[1]، يمدُّ عليها الظلَّ ما سرى في الليل سَفر، وطلع في السَّماءِ غَفْرٌ[2]، وخرج عن أيدي الكرامِ وَفْرٌ، وأَنِسَ بالركبان مهمهٌ قفر:

يَطُوعُ لها العاصي من الخطبِ عِزَّةً ... ويَدْخُلُ قَسْراً تحت أحكامِهَا الدهرُ
ولا زال يُعلي في الخليقةِ أَمْرَها ... على كلِّ أمرٍ مَنْ له النهيُ والأمر

وفي فصلٍ منها:

يا صارماً حاز الثناءَ بأَنْعُمٍ ... لا تنقضي أوقاتهنَّ فتنقضي
لما انْتَضَتْهُ يدُ الإمام تحققتْ ... هذي البريّةُ حُسْنَ رأي المنتضي
متواهنٌ عن كل جُرْمٍ طَرْفُهُ ... فإذا رأى أكرومةً لم يُغْمِض

---

(١) من قوله تعالى: ﴿ألم ترَ إلى ربك كيف مدّ الظلّ ولو شاء جعله ساكناً﴾ (الفرقان: ٤٥).

(٢) الغفر: منزل من منازل القمر، ثلاثة أنجم صغار وهي من الميزان.

عـلقتْ يـداهُ بكـلِّ لـدنٍ أسمـرٍ يـومَ الـلقـاءِ وكـلِّ عَضْـبٍ أبيض
وتـراهُ حين تـضيـقُ أثـوابُ العـلا
متمايساً في السؤدد المتفضفض/ [١٨٩]
يـا عـاشقَ العليـا وَمُبْغِضَ مـالِـهِ نـفسـي فـداؤُكَ من مـحبٍّ مـبغض
لا تسـألنّي عن زمـاني هـل بَـدَتْ ليَ منـه صفحـةُ مُقْبلٍ أو مُعْـرِضِ
أنت الـزمانُ فـإنْ وَجَدْتُـكَ سـاخـطاً يسخطْ عليَّ وإنْ رضيتَ فقـد رضي
كـم قَـوَّضَتْ يـمنـاك عـنّـا شـدةً لـولاك بـعـدَ الله لـم تـتـقـوض
ونهضتَ من ثقـلِ المعـالي بـالـذي لـوسيم يَـذْبُـلُ بَعْضَـهُ لم ينهض
[وبقيت تُسْهِـرُ][1] كلَّ طـرفٍ للعدا وتحـلُّ هَضْبَ سعـادةٍ [لم تُخْفَضِ]

[وتقطف][2] من إنعام الحضرتين ثماراً، وتعيدُ جَدْبَ[3] الـزمانِ ربيعـاً، وتُفيضُ على بني الآمال ربيعاً، فقد وَفَتْ لها حين خـانتِ اليدُ بنـانَها، وسئمتِ الضلوعُ جَنَـانَها، وصـدحتْ بالكلمـةِ العَلَوِيَّةِ على المنبـر، وسهامُ العـدا تقـع خلفاً وأماماً[4]، ورهـجُ خيولهم يَسْحَبُ على الموت غماماً، وكم لها من مقامٍ نتقَ قلوبَ العداةِ نتقاً، وجمـع قُطْري الرسـالة فتقـاً ورتقاً، فـلا قلَّص الله ظلَّها عن هذا الثغر الذي يكادُ ترابُهُ بكرمها يورق، ونبتُهُ[5] بحسنها يُشْرِقُ.

---

(١) بياض في ص.
(٢) يبدو أنه وقـع في هذه الصفحـة تقطيـع تـداخلت فيه نهايتـا سطرين، ممـا أحدث خللاً واضطراباً في النص.
(٣) ص: تعيد أحدب.
(٤) ص: وأمما.
(٥) ص: ونبتها.

١٥ ــ ومن أخرى لـه:

شهـرُ الصيامِ [ذو] فضـلٍ مشهـور، ورتبتُـهُ عَلَتْ[١] جميعَ الأيـامِ والشهور، فما تُنْتَهَكُ للشرع فيه حُرُماتٌ، ولا تُسْمَعُ للأوتارِ نَغَمات، ولا تنطقُ باللغو أفواه، ولا ترشفُ رُضابَ الكؤوس شفاه، وإذا اعْتُبرتْ أوقاتُ الحضـرةِ المنصورة، وُجِدَ أكثرها على هذه الصفةِ المـذكورة، إلّا أنّ الشهـر اختصَّه الله بشـرفِ القضية، وفـرض صيامَـهُ على جميـع البريّـة، فـلا زال على الحضـرة العالية عـائداً، ولهـا للأعمـال الصالحـةِ شاهـداً، تطلـعُ في ليـاليه الحسنـاتُ شموساً، وتجمـعُ بين الشفقِ والفَلَقِ تسبيحاً وتقديسـاً، خاطـرةً[٢] في جلابيب عزٍّ يعتلقُ الدهر بأسبابه، وكـرمٍ يَغْرَقُ البحـرُ في عبابـه، ومجدٍ تعشـو النيراتُ إلى أنواره، وتعتصمُ الملوكُ الخائفةُ بجواره، وتترّبُ بمكارمها الأيدي التـربة، وتثبتُ بسعـدها بـروجُهُم المتقلّبة، ويجـدون ترابهـا في أفواههم عسـلاً، وفي أجفانهم كَحَلاً، ويرون وظائفَ النُّوبِ عنهم تُرْفـع، وأنفَ الحوادثِ تُجْدَعُ:

قـد ودَّ هـذا الـشهـرُ أنّ هـلالَـهُ ... أضحى على غُـرَرِ الشهـور [يُـرَفَّـعُ]
أَلْـبـسْـتَـه تـقـوى وألْـبسَ حُـلَّةً ... من سـرمـدٍ وكـلاهمـا لا ينـزع
وبـرزتَ في جيشٍ تَغَصُّ بـه الفـلا ... وتـرى ذُكـاءَ بـنـقـعـه تـتـقـنَّـعُ
لـجبٍ شكتْ كفُّ البسيـطةِ ثِقْـلَهُ ... حـتى لـكـادتْ تحتـه تـتـصـدَّع
لا بـدَّ تُعْـرَفُ بـالعـراقِ[٣] جيـادُهُ ... ونسيـمُ ذكـرك فـوقهـا يـتضـوع
وعلى مَـطَاهـا دارعـون سيـوفُهُمْ ... تـدعُ السَّـرابَ كـأنمـا هـو أَيْـدَع[٤]
وتقيم شـرعَ بني النبيِّ بـأرْضِـهِ ... والبيضُ تُـرْعَفُ والـذوابـلُ تُشْـرَع

---

(١) ص: على.
(٢) ص: ناظرة.
(٣) ص: بالفراق.
(٤) الأيدع: صبغ أحمر.

لم ترضَ معروف العوارفِ نفسُهُ ... فتراه يُغْرِبُ في السَّماح وَيُبدع
وإذا تمنَّى المال يُودَعُ كفَّهُ ... خابتْ أمانيه وباتَ يُوَزّع[1]
تركتْ سيوفُكَ كلَّ خالعِ طاعةٍ ... وفؤادُهُ من خوفِ بأسك يُخْلَعُ

١٦ ــ ومن أخرى:

لقد أسعد الرحمنُ مَنْ بات ثانياً ... إليكَ عنانَيْ رغبةٍ وثناءِ
إذا ما الحيا جاراكَ في حَلْبَةِ الندى ... رمى فوق فَوْدَيْهِ قناعَ حياء
وما يتساوى قطُّ بحرٌ وجدولٌ ... ولا كلُّ أعضاءِ الفتى بسواء
وأنت سماءُ الملك وابنك شمسُهُ ... وهل نُظِرَتْ شمسٌ بغير سماء
إذا لم تحطْ نظماً ونثراً بمدحِهِ ... فما حيلةُ الكتاب والشعراء
فككتَ إساري مُنْعماً وتركتني ... لآلائك الحسنى من الأُسَرَاء

والذي جعلَ الأرضَ بساطاً يبسطُ قدرها في الآفاق، ويجعلُ أيامها ينابيعَ الأرزاق، حتى لا ينطق بسوى شكرِها لسان، ولا يُرَى لغيرها على أحدٍ إحسان.

١٧ ــ وفي فصل من أخرى:

وحضر فُلان، وعليه من نعمته آثار قد حَلَّتْ عَطَلَه، وسَدَّتْ خَلَلَهُ، وظهر في زيٍّ يكبتُ كلَّ عذولٍ وشامت، وينطقُ بالمنّةِ عنه وهو صامت، وقد سيّر من ذلك ما سيّر غوراً ونجداً، ونظم في ترائبِ الأيامِ منها عِقْداً، ولا زالتْ منه لذوي الآداب قاطِرَة، وعِراصُهُ بلطائمِ الثناء عاطِرَة، يتغايَرُ النثرُ والنظمُ على مدائِحِهِ، وتفيض على العافين غروبُ مواهِبِهِ ومنائِحِهِ. ولمَّا اعتزم العودةَ إلى ذلك الظلِّ المديد، والعيش الرغيد، زوَّدْتُهُ هذه الرقعةَ مستدعياً له الزيادةَ من كرم العادةِ، والحظوظ السَّنِيَّةَ المستفادَة.

---

(١) ص: يودع.

١٨ ــ ومن أخرى:

أُنبئتُ ــ أطال الله بقاءَ مولاي ــ بشيءٍ أنا فيه مكذّبٌ ومصدّقٌ، ومدافِعٌ ومحقّقٌ، واحتجت بحكم ذلك إلى مطالعته، وعلم كنه حالته[١]،

فالخِلُّ كالماء يُبدي لي ضَمَائِرَهُ ... مع الصفاءِ ويُخْفيها مع الكَدَرِ

عرفتُ أن هذا الراقصَ البغدادي قد رفض مودته خَلْفاً، وسلك به من الخِلافَةِ[٢] عسفاً، فوصله وهجر ديوانَهُ، وأَرْضَاهُ وأسخطَ خِلاَّنه، واستبذل فيه مصوناً من قدره، واستذلَّ عزيزاً من تأتّيه وَبِرِّه، وصار يهبُ النفس بلمسةٍ [من] إهابه، وجميعَ سَقْي النيل برشفةٍ من رضابه، وينشدُ إذا تراكضت خيولُ اللهوِ واللعبِ، وغلظ عليه قولُ اللاحي المؤنب:

غزالٌ تمتعتُ في قُرْبِهِ ... ونازعني الكاسَ حتى غَلَبْ
إذا ما تَنَفَّسَ في نَوْمِهِ ... تَنَفَّسَ عن مثلِ ما قد شرب
فيا ليلُ ليتكَ لا تنقضي ... ويا صبحُ ليتك لا تقترب

فوجدتُ والله من إشاعةِ هذه الحال ما يجدُهُ الخائِفُ غاب واقيه، والسليمُ عَدِمَ طبيبه وراقيه، خوفاً على جاه مولاي أن يميل، وَيَشْنُعَ فيه القالُ والقيل، فيصلَ إليَّ من المصاب بذلك ما يُعْشي الناظر، ويخذلُ الناصر، لا سيَّما والنسبُ حظُّهُ من الشرف الخطير، وقسطُهُ من الإعظام والتوقير، والصغيرُ يُعَدّ به كثيراً، والحصاةُ تُحْسَبُ معه ثبيراً، ولو كان مولاي مدَّ على هذه السقطة سَجْفاً، وشرب ذلك العُقَارَ مَزْجاً لا صِرْفاً، لجاز أن تخفى القِصَّة، وتَنْساغَ قليلاً هذه الغُصَّةِ، فالعقلُ نعمَ الرقيب، والليلُ نهارُ الأديب[٣]. ويجبُ

---

(١) كنه حالته: قراءة تقديرية، إذ هذا الجانب من الصفحة قد طمس.

(٢) الخلافة هنا بمعنى الخلاف.

(٣) قوله: «الليل نهار الأديب» فيه إشارة إلى قصة ليحيى البرمكي حين بلغه أن ابنه =

أن يتحقَّقَ مولاَيَ أني ما أَطلقتُ هـذه اللفظة إلاَّ وقـد حَصَرَ الكتمـان، والتقتْ حلقتا البطان، وسَمِعْتُ ما يُصِمُّ الآذان.

١٩ ــ وله من أخرى[١]:

مـا زال يختـارُ الـزمـانُ مـلوكَـهُ ... حتى أصـابَ المصـطفَى المُتَخَيَّـرا
قـل للألي سـاسوا الـورى وتقـدّمـوا ... قُـدُماً هلمـوا شاهـدوا[٢] المتـأخـرا
تجـدوه أوسـعَ في السيـاسـةِ منكم ... صـدراً وأَحمدَ في العـواقب مَصْدَرَا
إن كـان رأيـاً شـاوروه أحـنـفـاً ... أو كـان بـأسـاً[٣] نـازلـوه عنتـرا
قـد صـام والحسنـاتُ مـلء كتـابِـهِ ... وعلى مثـالِ صيامِـهِ قـد أفـطرا
ولقـد تخـوَّفَـكَ الـعـدوُّ بجـهـده ... لـو كـان يـقـدرُ أن يـردَّ مـقـدَّرا
إنْ أنـت لم تـبعـثْ إلـيـه ضُـمَّـراً ... جُـرْداً بعثَ إليـه كيـداً مُـضْمـرا
تسـري ومـا حملت رجـالٌ أبيضـاً ... فيـه ولا أدرعت[٤] كـمـاةٌ أسمـرا
خـطروا إليـك فخـاطـروا بنفـوسهم ... وأَمَـرْتَ سيفـك فيهـمُ أن يخـطرا
عجبـوا لحلمك أن[٥] تحـوَّل سطوةً ... وزلالِ خُلْقِـكَ كيف عـادَ مكـدّرا

= الفضل قد تشاغـل باللذات عن النظر في أمور الرعية ــ وكان والياً بخراسان ــ فكتب إليه يلومه، وضمن رسالته أبياتاً يقول فيها:

فكابـد الليـل بمـا تشـتهـي ... فـإنمـا الـليـل نهار الأديـب

انظر ابن خلكان ٤: ٢٨.

(١) منهـا ثـلاثـة عشر بيتاً في الخـريـدة: ١٦/ب، وأحد عشر في ابن خلكان ٢: ٩٠ وقال ابن خلكان: وقد أقتصرت منها على هذا القدر خوفاً من التطويل.

(٢) الخريدة: هلم فشاهدوا.

(٣) الخريدة والوفيات رأي... بأس.

(٤) ص: ادعرت؛ والتصويب عن ابن خلكان، وفي الخريدة: اعتقلت: وهو أدق.

(٥) الخريدة: عجباً لحلمك إذ.

لا تعجبوا من رقةٍ وقساوةٍ فالنارُ تقدحُ من قضيبٍ أخضرا
فلذاك عذَّكَ حين يعرضُ عارضٌ وُسْطَى البنانِ وعدَّ غيرك خنصرا
لو رام قُسْطَنطينةً لا جلَّقاً[1] بك لم يَدعْ في أرضها متنصّرا
ولقد قضتْ آيُ الكتابِ لكلِّ مَنْ نصر الشريعةَ أن يعانَ وينصرا

فلا برحت الحضرة ــ حرس الله أيامها ــ تفترُّ[2] عن مباسمها الحسان، وتفتخرُ بمناقبها قبائلُ غسَّان، فلو شاهد أهلُ جفنةَ[3] جِفَانَها، وأهلُ جَبَلَة بنِ الأيهم ضِرابِهَا وَطِعَانَهَا، لعلموا[4] أنَّ الله أتاحَ السماحةَ والبسالة ملكاً منهم يحفظُ ما ضيَّعَهُ الناسُ من عهودها، ويسرِّحُ ما ذَخَرُوهُ من نقودها، فما يزيدُ المدحُ مناقبَهُ ضياءً، ولا مراتَبهُ آعتلاءً، وإنما هو في ذلك كالمسكِ يطيبُ بنفسه[5] طبعاً، ويزيد المحارض[6] تضوعاً ونشراً، وإن أطال العبدُ في نشر فضائلها مِقْوَدَه، واستخدمَ في ذلك لسانَهُ وَيَدَهُ، فإنما هو كَمَنْ يوقدُ في الشمسِ ذُبَالاً، وَيُهْدي إلى الفراتِ نطافاً أَوْشَالاً، والذي مدَّ الأَرْضَ وجعل فيها رواسيَ وأنهاراً، يجعلُ أمدادَ[7] النعيم على الحضرةِ مُغْدِقَةً، ووفودَ المواهبِ بساحاتها مُحَدِّقَةً، ويمتّعُ الدنيا بمحاسنها التي يتطامَنُ لها ذوو الأَبْصار، وتتأرَّجُ تأرُّجَ القَطْرِ في جميعِ الأقطار.

---

(١) ص: لا حلعاً، ولم يرد هذاالبيت في الخريدة.
(٢) ص: تعبر.
(٣) جفنة: الغسانيون.
(٤) ص: لعلم.
(٥) ص: لنفسه.
(٦) كذا في ص، ولعله: ويزيد في المجامر.
(٧) ص: امتداد.

٢٠ ــ ولـه من أخرى:

فـولجتُ منزلاً قـد استعار من قلبِ العـاشق حَـرّاً ورَهَجَـاً، ومن أخـلاقِ مالِكِهِ ضيقاً وحَرَجاً[١]، كأنما زَفَرَتْ فيـه النار، ونُقِّطَ على جُـدْرَانِهِ[٢] بـالقار، فجلستُ طـويلاً إلى أن حضـر الإخـوان، وقُـدِّمَ الخـوان، فـرأيتُ أرغفـةً قـد أُحْكِمَتْ في الصِّغـر والإلطاف، ولم تتعـوَّذْ قطُّ من الأضياف، قـد مرَّت عليهـا أيام، وعُنِيْت بقولِ ابن بسَّام[٣]:

أتـانـا بـخـبـزٍ لـه يـابسٍ كـمـثـلِ الـدراهـم فـي خِـلْقَـتِـهْ
إذا مـا تـنفَّسْتُ عـنـدَ الـخـوانِ تـطايـرَ فـي البيـتِ مـن خـفَّـتِـهْ

وثلاثةِ صحـافٍ، ، واسعةِ الأكنـاف، بعيدة الأوسـاط من الأَطْراف، قـد جُعِـلَ في قـرارةِ كـلٍّ منهـا مـا لا يَـدْفَـعُ السَّغَبَ، ولا تجدُهُ / [١٩١] اليدُإلاّ بـالتَّعَب، فَجُلْنا جَـوْلَةً وعينُـهُ تطرف علينـا شمالاً ويمينـاً، وتتفقَّـدُ منـا حـركـةً وسكوناً، وقمنا ولم نقاربْ الكفـافَ، وقد ظَنَّ بنـا الإسرافَ، فحضـرنا مجلسَ المعاقرة فأُديرتْ علينا قهوةٌ قد خُصَّتْ باللون الكدر، وكُثِّرتْ بالماءِ الخَضِرِ[٤]،

كـالمُهْلِ تَغْلي في البطونِ لو آنهـا يَـوْمـاً تُعَـدّ لكـافـرٍ لـم تَحْـرُمِ

فَحَسَوْنَا أوّلاً وثانياً، وَكَـرَعْنَا منهـا حميماً آنيـاً، وقلنا لعـلَّ ما يحضـر من الملهيات يُصْلِـحُ فاسِدَهَا، وَيُنْفِّقَ كاسِدَهَـا، ولم يكنْ بأَسـرعِ من أنْ افتتحتْ قَيْنَةٌ يَحْرُمُ لها السماعُ، وتستلذُّ الصمَمَ الأسماعُ:

---

(١) ص: وحربا.

(٢) ص: ولقط على جدراته.

(٣) هـو عليّ بن بسّـام البغدادي (ــ ٣٠٢أو ٣٠٣)، وقـد مـرّ ذكـره في عـدة مـواطن من الذخيرة.

(٤) الخضر: يريد ماء فيه طحلب، للمبالغة، وإلا فقد تقرأ «الخصر».

تُكْـدِرُ صَفْـوَ الـراح في شَـدْوِهَـا وتـنفـرُ الأنـقـارُ[1] من ضَـرْبِـهَـا
لـم تـكـنِ الـعـلـجـةُ مـطـبـوعـةً بـل كـان مـطـبـوعـاً على قلبهـا

فسمعنا ولأمرِ الله سَلَّمنا؛ فحين جرَّ الظلامُ علينا الذَّيْلَ[2]، وغشَّى النهارَ الليلُ، زُفَّتْ إلينا خريدةُ رأسُهَا مقطوع، ووسطها مشغوبٌ مرقوع[3]، قد حَفِظَتْ عن عادٍ عَهْدَهُ، واستعارتْ من يأجوجَ قَدَّهُ، تبص كعيونِ الجنادب، وتضيء في الظلماء كنارِ الحباحِب، فقوَّضنا خياماً، وسكرنا همّاً لا مُداماً؛ فالحمدُ لله الذي صدَّ مولاي عن هذا المقام وَمَنَعَهُ، وَحَمَى عمَّا حضرناهُ مُسْتَمَعَهُ.

٢١ ــ وله من أُخرى إلى نفيسِ الدولة يستدعيه:

أنا ــ أدام الله تمكُّن مولاي ــ كالماء تتفرَّقُ أجزاؤُهُ فيلتئم، وكَعِرْقِ الفصادِ تُمَزِّقُهُ المباضِعُ[4] فيلتحم؛ وذلك أنه ــ أدامَ الله عزَّهُ ــ ارتدَّ عن شريعة الوداد، ودانَ في دينِ المحافظة بالإلحاد، واستعمل [من] الجَفْوَةِ ما ينفِرُ الطَّرفَ عَن هُجُوعِهِ، وَيُوحِشُ الصدرَ من صُحْبَةِ ضلوعه، فقسوتُ عليه أيَّاماً، وأوسعتُهُ[5] في النفسِ ملاماً، ووجدتُ طعمَ السلوة طيِّباً، والصبرَ من الصَّبرِ عنه ضَرَباً، وتشخَّصَتْ ليَ أخلاقُهُ مُرَّةَ المقاطف، خَرِبَةَ المكاسِرِ والمعاطف:

وإذا أفاق الجحدُ واندمل الهوى رأتِ القلوبُ ولم تَرَ الأحداقُ

---

(١) ص: الأنفار.
(٢) ص: جرى... الليل.
(٣) ص: مشغوف مرفوع.
(٤) ص: المضابع.
(٥) ص: وأزمعته.

فما هو [إلَّا] أن اجتمعتُ به اليومَ في المجلسِ المعمور حتى هبَّتْ عليَّ رياحُ صفاتِهِ فطبَّتْ تلك الكلومَ، وجدَّدَتْ تلك الرُّسُومَ، وأَرَتْني المُخْفَر من عهوده مخفوراً، والمُحْصَى من ذنوبِهِ منسيَّاً مغفوراً، فاستحال السلوُّ شَوْقاً مبرِّحاً، والناضرُ[1] من المَعْتَبة هشيماً مُصَوَّحاً:

وما زال داعي الشوقِ حتى أَجَبْتُهُ ... بمطروفةٍ تَدْمَى لواهي الأنامِلِ

وَصَدَرَتْ هذه الرُّقْعَةُ وأنا أَوَدُّ كَلَفاً، لو كنتُ فيها أَلِفاً، تفاؤلاً بعودةِ رياحِ الْأُلْفَةِ، وتسكيناً للقلب من نَزَوَاتِ الرَّجْفَةِ:

من الوفاءِ وفاءٌ لا يُغَيِّرُهُ ... مرُّ الزمانِ بإعراضٍ وإقبالِ

وعندي الآن ذاك الصديقُ الذي يخطُفُ العقولَ ويُذْهِبُها، ويُغيرُ على الألبابِ وينتهبها، ويحطّمُ الرماحَ كِرانُهُ، ويؤْمَنُ في مضمارِ المسرَّةِ خوانُهُ، وليس والله تُتَصَوَّرُ لي الْأَقْداحُ، وَتُلْثَمُ مراشفُ الراح، إلَّا ومولايَ يحاسيني كؤوسَها، ويجهِّز إليَّ خميسها؛ وأَسْأَلُهُ أن تكونَ قراءَةُ هذه الرقعةِ وقد رَكِبَ سَمْتَ الطريقِ، وقابل الْأَمْرَ بالتحقيق.

٢٢ ــ وله من أخرى، وقد قُبِضَ على الوزير وقتَ الظهر، وأُفْرِجَ عنه في العشاء الآخرة:

من كَرَمِ اللَّهِ وجزيلِ إسعافِهِ، وجميلِ صُنْعِهِ وأَلْطَافِهِ، أَنْ جُعِلَ سيدنا كالنُّجوم تغيبُ ثم يرتفعُ في غدٍ سَمْتُها، أو كملكةِ الشطرنجِ يقال: قد فاضَتْ ثم تعيشُ لوقتها؛ وقُضي لحضرته بأن تزلَّ الخطوبُ عنها زليلَ التراب عن مَتْنِ الصَّفا، وتتحاماها النوائبُ [في هبوطها] وطلوعها، منذ خَطَرتِ الشمسُ في الحللِ الجلّنارية، إلى أنْ صارت في [الثياب] السُّوسِيَّةِ. ونزل

(١) ص: والناظر.

سيّدنا إلى دَارِهِ بالسَّعدِ المُصْحِب، وفي الموكبِ المتلاغط اللجب، وترك الوزارةَ تدعو[1] مَنْ زانها وجمَّلها، لمن رقع هَلْهَلَهَا وَسَمَلَهَا[2]، وإن أكتأبَتْ لِبُعْدِهِ، وَعَقَبَتْ أعطافُها بلطائف مجده:

يضوعُ ثَرَاهَا بالنَّدى فتخالُهَا ... رياضاً وكانت قبلُ وَهْي صوائحُ
صفا جوُّها بعد الكدورِ بِعَدْلِهِ ... وطابت حشاياها الظماءُ القوامح[3]

فالحمدُ لله على ما منَّ من سُرْعَةِ الإقالة، وانقضاب تلك الحبالة، وتفضَّلَ به من حُسْنِ الرعاية والكفالة، ولا زالت مواهِبُهُ ـ جلَّت آلاؤُهُ ـ تقعُ عند سيدنا من وراءِ الاقتراح، وتسخّرُ له أعطافَ الغدُّ والرواح.

٢٣ ـ وفي فصل من أخرى[4]:

وصلتْ رقعةُ مولايَ والصبحُ قد سلَّ على الآفاق مِقْضَبَهُ، وأَزَالَ بأَنوارِ الغزالة غَيْهَبَهُ، فكانت بشهادة [الله][5] / [١٩٢] صُبْحَ الآدابِ ونهارَهَا، وثمارَ البلاغةِ وأَزْهَارها، قد توشَّحَتْ بضروبٍ من الفضل تعطيه[6] قاصية المدى، وَتُجْرِيهِ[7] في مِضْمارِ الأدب مُفْرَدا:

فكأنَّ روضَ الحَزْنِ تنشره الصَّبا ... ما ظلتُ من قِرْطَاسِهَا أتصفَّحُ

---

(١) كذا في ص، ولعله «تدع».
(٢) ص: وشملها.
(٣) الظماء القوامح: قراءة تقديرية، فالخط باهت كثيراً تصعب قراءته.
(٤) أورد ياقوت (٩: ١٥٧) هذه الرسالة وقال: إن ابن أبي الشخباء كتب بها إلى أبي الفرج الموفقي جواباً عن رقعة.
(٥) الكلمة مطموسة في الأصل، واعتمدت في إثباتها على معجم ياقوت.
(٦) ياقوت: تقصر.
(٧) ياقوت: ويجري به.

فأمَّا ما تَضَمَّنَتْهُ من وصفي فقد صارت حضرته [السامية][1] تتسمَّحُ في الشهادةِ بذلك مع مناقشتها في هذه الطريقة، وأنها لا تُوقِعُ ألفاظَهَا إلاَّ في مواضع الحقيقة، فإن كنتُ قد بَهْرَجْتُ عليها فلتراجع[2] فيَّ نقدها[3]، تجدني لا أستحقُّ من ذلك الإسهاب فَصْلاً، ولا أُعَدُّ لكلمةٍ واحدةٍ منكم أهلاً؛ والله يُنْهضُني لشكرِ هذا الإنعامِ الذي يقفُ عليه[4] الثناء ويظلَعُ، ويَحْصُرُ دونه البليغُ[5] المِصْقَعُ:

هيهات: تُعْيي الشمسُ كلَّ مرامقٍ ... ويعوقُ دون منالِهِ العيُّوقُ

٢٤ ـ وفي فصل[6]:

وما الفصلُ الذي ذكر أنَّه أَلفاه في رسائل الكتاب وهو[7]: «وأمَّا فلان فيحلُّ في قومِهِ محلَّ العميد، ويفرحُ بالضيوفِ فَرَحَ حَنيفةَ بابن الوليد، قدورُهُ عَمَّارية، وعَطَسَاتُ جوارية أسديّة، تراهُنَّ أبداً يمشين في حُلَلِ الشباب، ويهوين لو خُلِقَ الرجالُ خَلْقَ الضَّباب، يتضوَّعْنَ عن النشر العبقَسيّ، ويرتضعن مراضعَ ثُعالةَ المجاشعي». [وما أَمَرَتْ حضرتُهُ الساميةُ من ذكْرِ ما فيه عندي، فقد تأمَّلْتُهُ طويلاً، وعثر الخادم فيه بما أنا ذاكره، راغباً في الرضى بما بلغت إليه المقدرة وتجليلِ ذلك بسجوفِ الصَّفح][8].

---

(١) زيادة من ياقوت.

(٢) ص وأصل ياقوت: فتراجع.

(٣) ص: بعدها.

(٤) ياقوت: عنده.

(٥) ياقوت، الخطيب.

(٦) انظر ياقوت ٩: ١٥٨ ـ ١٦٣.

(٧) ياقوت: الذي أودعه الرقعة الكريمة.

(٨) هذه الزيادة من ياقوت ضرورية للربط، وتوثيق نسبة الشرح إلى ابن أبي الشخباء لا إلى ابن بسّام، وفي إيراد هذه الشروح يعتمد ابن بسّام الإيجاز.

قوله: «فَرَحَ حنيفة بابن الوليد» أشار إلى ما قتل خالد بن الوليد المخزومي من بني حنيفة؛ وقوله: «قدوره عمّارية» أشار إلى قول الفرزدق[1]:

لو أن قِدراً بكتْ من [طولِ ما] حُبِسَتْ ... على الحفوف[2] بَكَتْ قدرُ ابنِ عمّار[3]
ما مسَّها دَسَمٌ مذ فُضَّ مَعْدِنها ... ولا رأتْ بعد نار اليقْيْنِ من نار

وقوله: «عَطَسَاتُ جواريه أسديّة» فأَرَادَ قولَ الْأَوَّلِ في هجاء بني أسد:

إذا أَسَدِيةٌ عطستْ ..... فإن عُطَاسَها طَرَفُ الوداق[4]

وقوله: «يهوين لو خُلِقَ الرجالُ خَلْقَ الضباب» فذكر الجاحظُ أنَّ للضب ذكرينِ وللضبة حِرَيْن[5]، وأنشد قول النميريّ[6]:

تفرقتم لا زلتُمُ قِرْنَ واحدٍ ... تفرُّقَ . . . الضبِّ والأصْلُ واحدُ

وأنشد قول القائلة[7]:

وددتُ بِأَنَّه ضبٌّ وأني ... ضُبَيْبَةُ كُدْيَةٍ وَجَدَتْ خلاءَ

---

(١) ديوان الفرزدق ١: ٣٢٦.
(٢) على الحفوف: قلة من الدسم؛ وفي ياقوت عن الحقوق (مع أن أصله: على).
(٣) الديوان: ابن جيار، وبهذه الرواية يضطرب الاستدلال، إذ يجب أن يقول «قدوره جيارية».
(٤) البيت في الأغاني ١٢: ١٨١ منسوب لكثير عزة (ديوانه: ٣٨٩) وروايته: إذا ضمرية عطست.
(٥) انظر الحيوان ٦: ٧٢، وانظر أيضاً ٤: ١٦٣ ــ ١٦٤.
(٦) ص: قول البحتري: وأورده الجاحظ (الحيوان ٦: ٧٢) دون نسبة؛ وإنما رواية الخبر كله عن أبي خالد النميري لا البيت وحده؛ وقال الجاحظ إن البيت مما أنشد الكسائي. وفي ياقوت (٩: ١٦١) وأنشد الأصمعي لابن درماء فيما رواه أبو خالد النميري.
(٧) هي عند الجاحظ، وياقوت حبّى المدينة.

وأمَّا قولـه: «يتضـوَّعْنَ عن النشـرِ العبقسيّ» فـإن من أمثـال العـرب: هو أخسرُ صفقةً من شيخٍ مهوٍ[1]، ومهوٌ بطنٌ من عبدِ القيسِ، وكان من خبره أنَّ إيَّاداً كانت أَفْسَى العرب، فوفد وافدُهُمْ إلى الموسمِ بسوقِ عكـاظ، ومعه حُلَّةٌ نفيسة، فقال: يا معشرَ العرب إني قد بعتُ فساءَ إيَّادٍ لوافدِ عبدِ القيسِ بحلتي هـذه؛ وافترقـا راضيين، وقـد شهـد عليهمـا أهـلُ الموسم، فصـارت عبدُ القيس أفسى العرب. وقيل لابن مناذر[2]: كيف الطريقُ إلى عبدِ القيسِ؟ قالَ: شمَّ ومُرَّ،

فـإنَّ عبـدَ القيسِ من لـؤمهـا تفسـو فُسـاءً ريحُـهُ يَـعْبَـقُ
من كـان لا يـدري لـهـا منـزلاً فقـلْ لـه يـمشي ويستنشـق

وأمَّا مراضع ثعالة فيقال: هو أعْطَشُ من ثعالـة[3]، رجلٍ من بني مجاشع، كان ضلَّ الطريقَ هو وابنُ عمٍّ له، فعطشا، فالتقم كلُّ واحدٍ منهما عضو صاحبه يشربُ بوله، فلم يُغنيا عنهما شيئاً وماتا عطشاً، فوجدا على تلك الحال؛ ولذلك قال جرير يعيّر بني دارم[4]:

رضعتُم ثم بـال عـلى لـحـاكـم ثعـالـةُ حين لم تـجـدوا شـرابـا

---

(١) المثل في الدرة الفاخرة: ص ١٤٠ (أحمق من...) والعسكـري ١: ٣٨٨ والزمخشري ١/ ٨٢، وثمار القلوب: ص ١٠٦، واللسان (فسا)؛ وأسم الشيخ عبـد الله بن بيدرة، وفي نقل ابن بسّام إيجاز مخلّ: فـإن الإيادي نـادى ألا إني رجل من إيـاد فمن ذا الذي يشتري عار الفسومني ببردي هذين فقام الشيخ العبدي فقال: هاتهـا. فاتـزر بأحـدهما وارتدى بالآخر، وحينئذ أشهد عليه الإيـادي من شهد الموسم بعكاظ.

(٢) هو محمد بن مناذر، شاعـر بصري مات في أيـام المأمون (الأغاني ١٨: ١٠٣، والشعـر والشعراء: ٧٤٧، وطبقات ابن المعتز: ١١٩، ومعجم الأدباء ١٩: ٥٥).

(٣) ورد المثل في الدرة الفاخرة: ٣٠٩، والعسكري ٢: ٧٠، والميداني ٢: ٤٩، والـزمخشري ١: ٢٤٨.

(٤) ديوان جرير: ٨١٨، وروايته «ثم سال».

وقيل: ثعالة: الثعلب، في تفسير هذا الخبر عن ابن حبيب، وخالفه ابن الأعرابي وحكى ما ذكرناه، وأنشد أيضاً قول جرير[1]:

ما كان يُنْكَرُ في غَزِيَّ[2] مجاشعٍ أكلُ الخزيرِ ولا ارتضاعُ الفَيْشَلِ

٢٥ ــ وله من أخرى يعزّي بموتِ ولدِ فخرِ الدولة غريقاً[3]:

غيرُ بِدعٍ من الزمان ــ أطال الله بقاء [حضرة][4] سيدنا ــ أن تُنْكَثَ حبالُهُ، وتَصْرَد نبالُهُ، وتراشَ في قصدِ الكرام سهامه [وتُرْهَفَ نصالُهُ] وتفهقَ بالغَدْرِ فجاجُهُ ويمزَج[5] بالسُّمِّ أُجَاجُهُ، ويُثارَ في النفوس عجاجه[6]، ولذلك عرفتِ النفوسُ مواقعَ نُكْرِهِ، وأَنِسَتْ بغرائِب[7] غَدْرِهِ ومكره، واطمأَنَّتْ الضلوعُ وقد أصمتَ ضرائبه[8]، وهجعتْ العيونُ وقد استيقظتْ نوائبه، فقلَّ ما يُرَاعُ رَوْعٌ بما جناه، وتجذلَ نفسٌ / [١٩٣] بما منحه وأَقناه. فإذا اصطلم [يوماً] أَنف المجد [و] جدع، [وفطر قلوب المكارم وصدع]، وخرج عن العادةِ المألوفَةِ فابتدع، فهناك يحسنُ أن تُطْلَقَ بذمِّه الأَلْسُنُ، ويجبُ أنْ يُلْقَى بجيشِ اللَّوْمِ اللَّجِبِ.

---

(١) ديوان جرير: ٩٤١، والدرة: ٣٠٩، والنقائض: ٢٢٣، والمعاني الكبير: ٥٨٥، واللسان والتاج (فشل).

(٢) الديوان: نديّ؛ ص: عديّ.

(٣) وردت هذه الرسالة في جمهرة الإسلام، الورقة: ٦٨، وأنها في رثاء ولد كافي الكفاة، وبين النصين اختلاف، كما أن الرسالة في الجمهرة، وفي الذخيرة.

(٤) زيادة من جمهرة الإسلام.

(٥) الجمهرة: وتجدع (أقرأ: وتجدح).

(٦) قدمت هذه العبارة وقد تأخرت عن هذا الموضع في ص، اعتماداً على جمهرة الإسلام وحفاظاً على تسلسل الأسجاع، وكانت في الأصل: ويثار في قصص الكؤوس عجابه.

(٧) الجمهرة: وأنس بعرف.

(٨) الجمهرة: صوائبه.

ولمَّا طرق الفادحُ بمن لا أسميه تفادياً[1] من تحقيقِ الخبرِ بمصرعِهِ، وصوناً له من مَوْرِدِ الحمامِ وَمَشْرَعِهِ، رأيتُ[2] المحامدَ ذَات نورٍ خامد، والمآثر ذاتَ عِقْدٍ متناثر، والقمرَ قد سئم هالَتَهُ، والصُّبْحَ قد خلع[3] الليلُ عليه غِلالَتَهُ وشاهدتُ الكتابة مقصورة المدود، والبلاغة مخموشة الخدود[4] والأدبَ قد اسودَّتْ سِحْنَتُهُ، واشتدَّتْ على الزمن[5] وامتدت إحنته، إذ طرق بما يتجاوزُ القدرَ، ويُوحِشُ الأضالعَ من صحبةِ الصَّدْرِ.

شمسُ العُلا غَرَبَتْ بحيثُ ترى ... أبداً غروبَ الشمس والبدرِ
من برِّه بكَ أن يُخَطَّ له ... جَنَنٌ بقربِ عطائكَ الغمر[6]
وكأنما هو دُرَّةٌ دُفِنَتْ ... في جَنْبِ ما ولدت من البحر[7]
وتنزَّهَتْ عن أنْ يصافحها ... سَمْكُ[8] الصفيح وظلمة القبر

فتعالى الله كيف اسْتُرِدَّ ذلك البدرُ قبل تمامِهِ، وذبل ذلك الزَّهْرُ في كمامه[9] قبل أن تشرف بموكبه الأعلام، وترْوَى من بنانِهِ الأقْلام، ويَعْبَقَ دَسْتُ الوزارةِ بنشره، وَيُنْشَرَ رميمُ السيادةِ بطيّه ونشره، و[يتاح] للطروسِ من ألفاظه الدرّيَّة ما يَفْضَحُ[10] العقودَ الدريَّةَ، وتَعُسْعِسُ معه الليالي البدريّة.

---

(١) الجمهرة: تباعداً.
(٢) الجمهرة: رأى.
(٣) الجمهرة: ألفى.
(٤) الجمهرة: شواهد البلاغة متصرمة المدود، والكتابة مرسومة الحدود.
(٥) الجمهرة: على الدهر.
(٦) لم يرد هذاالبيت في الجمهرة.
(٧) الجمهرة: ما وليت من النحر.
(٨) الجمهرة: صمّ.
(٩) الجمهرة: قبل إكمامه.
(١٠) الجمهرة: وتتيه الطروس من الفاظه الدرية بما يفضح... إلخ.

وقبـلَ يُـرى من جـودِهِ مـا رأيتَـهُ ويسمـعَ فيـه ما سمعتَ من العـذلِ

هذا والله هو المصابُ الذي تستعذِبُ فيه الحلومُ هَفَوَاتِها[1] وتفارقُ له القلوبُ سُـوْيداواتِهَـا، وتستخفُّ النفوسُ حَمْـلَ الأوزار، وتأنف العيـون[2] من لقـائِـهِ بـالـدمـوع الغـزار، حتى تجعـل ذلـك دابَهَـا، وتخضبَ بـالنجيـع [أهدابها، إلَّا] أنه نزل بالحضرة[3] ممن شُـدَّت بالتقـوى[4] مريـرتُه، وتسـاوَتْ في طاعة الله علانيته وسريرته، فالجزع لا يصبـحُ مالكَهُ، والخطوبُ لا تخطبُ تهـالُكَه، والنـازلُ يُطيفُ منـه بالعَـوْدِ البازل، الـذي يتحقَّقُ أنَّ الدنيـا نسيمُهـا شرَار، وطعمهَا مرار، والمقيم فيها مُوجِفٌ، والرائد مُنْبَتٌّ مُعْجِفٌ.

وذكرتُ بهذا الفصل ما أنشدته لبعضِ أهلِ عصري يصـف غلاماً وسيماً [عامَ فانحسر منه العزم ونجا][5] بعد أن أشرف على الموت من جملة أبيات:

شجاني المقام الصَّعْبُ لمـا شهدتُـهُ وقد ضاقتِ الْأَنْفـاسُ والنفسُ تذهبُ
وقـد بُهتـت فيـه الـلواحظُ إذ رَنَتْ إلى درَّةٍ تـطفـو [أوانـاً] وتـرسب
كـأنَّ خـليـجَ المـاء كـان مجـرَّةً وأنـت بهـا شـمسٌ تلوحُ وتـغـرب
كُسيت اصفرار الروضِ عنـد ذبولـه ولكن على الحـالين مرآك أعجب[6]
عـدا الماء من مـاءِ الصبا فيـكَ غيرة وما خلتُ أن المـاء للمـاءِ يَغْضَبُ
ستبقى بهـذا النهرِ للنـاس عبـرةٌ مؤرِّخـةٌ في الـكتـب تتـلى وتكـتب
وتبنى على شـاطىء نجـاتـك كعبـةٌ يحـجُّ لهـا بـالحبِّ مَـنْ يتقـرب

(١) الجمهرة: النفوس فواتها.
(٢) الجمهرة: الجفون.
(٣) الجمهرة: نزل من الحضرة العالية.
(٤) الجمهرة: شزرت (أو سورت) من التقوى.
(٥) هذه القراءة بحسب المعنى لعدم وضوح الألفاظ في ص.
(٦) هذا الشطر غير واضح في ص.

٢٦ ــ ولـه من أخرى:

لديّ[١] ــ أطال الله بقاء مولاي الشيـخ ــ نفسٌ ترى النِّعَمَ مـع المهـانة نِقماً، وتجدُ طَعْمَ العيشِ مـع عَدَمِ الإنصافِ عَلْقَماً، ولو سُمْتهـا خروجـاً عن هذا الأسلوب، ونزولاً عن ذلـك الظهـر المركـوب، لرأتِ الخـروجَ من الصدرِ أخَفَّ عليها محملاً، وأَعْذَبَ لديها مَنْهَلاً:

لكـل امرىءٍ من دهـرِهِ مـا تعـوَّدا[٢]

وهـذا بثٌّ اقتضاه كثـرةُ تعجّبِ مـولايَ من انقـطاعي عن الحضـرة التي بـأنوارِ مجـدها تَـوَضَّحْتُ، وفي بحبوحـة عزِّهـا دُرْتُ وسَرَحْتُ، ومـا أَطلقَ من الأَلفـاظِ التي لو حـاسب لسانَـهُ عليهـا لأَنِفَ من ذكـرهـا، واستغفـر من إثمهـا ووِزْرِهَا، وقبيـحٌ بمثله ممن أعطاه السؤدَدُ مقادَتَهُ، وركبَ مَتْنَ الشرف وجادّته، أن يأكلَ لحم أخيه حيًّا، ويرى غِيبةَ خُلْطانِهِ طعاماً مريًّا، ولو عـرف أصلَ ذلـك وفَـزِعَهُ، ونـاجتْ بـه الحقيقةُ لسـانه وَسَمْعَـهُ، فكيف أن يُزْري وهـو لا يدري، ويتكلم وهـو لا يعلم، ويستحسن قواريضَ من القـريض تترك شمـلَ المحامـدِ مُفَرَّقاً، وأَدِيمَ الأَعـراض ممزقـاً. ولقد كنتُ مُـزْمِعاً على فـراق العادة، واتبـاعِ قولِ ابن ميادة[٣]: / [١٩٤].

وحِكْتُ لهم ممـا أقـول قصـائـداً تخبُّ بهـا صُهُبُ المهارَى وَجُـوْنُهَـا

ورأيتُ أنْ أنبِّهَ مولاي على ما أنكرته: أن يكونَ بين أمرين: إمَّا أن يسأل

---

(١) ص: لسيدي.

(٢) صدر بيت للمتنبي. عجزه: وعادة سيف الدولة الضرب في العدا.

(٣) من قصيدة له أورد أبو الفرج أبياتاً عديدة منها (الأغاني ٢: ٢٦٣ ــ ٢٦٤) ومطلعها:
ألا حـيـيا الأطلال طالـت سـنينهـا بحيث التقت ريـد الجنـاب وعينهـا
إلا أن البيت لم يـرد في الأغـاني، وانـظر شعـر ابن ميـادة (جمع الـدليمي): ١٠١ (رقم: ١٥٣).

عن السبَبِ الموجبِ لبعدي عن تلك الحضرة، أو يمسكَ عن الخوضِ في ما لا تحيطُ به الخِبْرة، فلعلَّهُ إذا علم الحقيقةَ مهَّدَ المعذرَةَ، وبرَّد لَفَحاتِ اللومِ المستعرة، وتبين[1] أني ما ثنيتُ عناني عن هذا المورد إلاَّ وقد تَرَنَّقَتْ مشارِعُه، ولا زويتُ وجهي عن ذلك المنتَجَع إلاَّ وقد ذوتْ مراتِعُهُ؛ وبعد ذلك فبين أضلعي ولاءٌ تشتبكُ أَوَاصِرُهُ والأَنْسَابُ منفصمة، ويشرقُ صباحُهُ وأَسِرَّة الشمس مُظْلِمَةٌ، إذا حفَّتْ به الحفائظ رقَّ نسيمه، وتساوى في الإخلاص حديثُهُ وقديمه:

فإن أُنْصِف فإن يداً تولَّتْ ... كسوري تهتدي لمكانِ جبري
وإن أُحْرَمْ قَضاءَ العدلِ أَرْجِعْ ... إلى كَنَفَيْنِ من هجرٍ وصبر

* * *

(١) ص: ويتبين.

ثانيًا
من معجم الأدباء

﴿١٣ ــ الحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ أَبِي الشَّخْبَاءِ﴾[1]

أَبُو عَلِيٍّ الْعَسْقَلانِيُّ صَاحِبُ الرَّسَائِلِ، مَاتَ فِيمَا ذَكَرَهُ عَلِيُّ بْنُ بَسَّامٍ فِي كِتَابِ الذَّخِيرَةِ فِي سَنَةِ آثْنَتَيْنِ وَثَلاَثِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ مُعْتَقَلاً بِمِصْرَ فِي خِزَانَةِ الْبُنُودِ، وَكَانَ يُلقَّبُ بالْمُجِيدِ ذِي الْفَضِيلَتَيْنِ، أَحَدُ الْبُلَغَاءِ الْفُصَحَاءِ الشُّعَرَاءِ، لَهُ رَسَائِلُ مُدَوَّنَةٌ مَشْهُورَةٌ، قِيلَ: إِنَّ الْقَاضِيَ الْفَاضِلَ عَبْدَ الرَّحِيمِ بْنِ الْبَيْسَانِيِّ مِنْهَا آسْتَمَدَّ، وَبِهَا آعْتَدَّ، وَأَظُنُّهُ كَتَبَ فِي دِيوَانِ الرَّسَائِلِ لِلْمُسْتَنْصِرِ صَاحِبِ مِصْرَ، لأَنَّ فِي رَسَائِلِهِ جَوَابَاتٍ إِلى الْبَسَاسِيرِيِّ، إِلاَّ أَنَّ أَكْثَرَ رَسَائِلِهِ إِخْوانِيَّاتٌ، وَمَا كَتَبَهُ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى أَصْدِقَائِهِ وَوُزَرَاءِ أُمَرَاءِ زَمَانِهِ، وَهَا أَنَا أَكْتُبُ مِنْهَا مَا سَنَحَ لِتَعْرِفَ قَدْرَ بِضَاعَتِهِ، وَمَغْزَى صِنَاعَتِهِ نَظْماً وَنَثْراً. قَالَ مِنْ قَصِيدَةٍ:

أَخَذَتْ لِحَاظِي مِنْ جَنَا خَدَّيْكِ ... أَرْشَ[2] الَّذِي لاَقَيْتُ مِنْ عَيْنَيْكِ

هَيْهَاتَ، إِنِّي إِنْ وَزَنْتُ بِمُهْجَتِي ... نَظَرِي إِلَيْكِ فَقَدْ رَبِحْتُ عَلَيْكِ

غُضِّي جُفُونَكِ وَآنْظُرِي تَأْثِيرَ مَا ... صَنَعَتْ لِحَاظُكِ فِي بَنَانِ يَدَيْكِ

هُوَ ــ وَيْكِ ــ نَضْحُ دَمِي وَعَزَّ عَلَيَّ أَنْ ... أَلْقَاكِ فِي عُرْضِ الخِطَابِ بِوَيْكِ

فَسَلَكْتُ فِي فَيْضِ الدُّمُوعِ مَسَالِكاً ... قَصُرَتْ بِهَا يَدُ عَامِرٍ وَسُلَيْكِ

---

(١) راجع وفيات الأعيان ــ ج ٢ ــ ص ١٣٣.

(٢) الأرش: الدية، وفي الشرع: بدل ما دون النفس من الأطراف.

صَـانُـوكِ بِـالسُّمْـرِ اللِّدَانِ وَصُنْتِهِمْ بِنَـوَاظِـرٍ فَحَـمَـيْـتِـهِـمْ وَحَـمَـوْكِ
لَوْ يُشْهِرُونَ سُيُوفَ لَـحْظِكِ فِي الْوَغَى لَاسْـتَـفْـرَءُوا فِـيهَـا قَـنَـا أَبَـوَيْـكِ

١ ـ وَقَدْ كَتَبَ إِلَى صَدِيقٍ لَـهُ:

لَمَّا حُدِيَتْ رِكَابُ مَوْلَايَ أَخَذَ صَبْرِي مَعَهُ، وَصَحِبَهُ قَلْبِي وَتَبِعَهُ:

فَعَجِبْتُ مِـنْ جِسْـمٍ مُقِـيمٍ سَـائِـرٍ كَمَسِيـرِ بَيْـتِ الشِّـعْـرِ وَهْـوَ مُقَيَّـدُ

وَبَقِيتُ بَعْدَهُ أُقَاسِي أُمُوراً تُخِفُّ[1] الْحَلِيمَ، وَتُرْعِي الْهَشِيمَ، إِنْ رَجَـوْتُ مِنْهـا غَفْلَةً اقْتَحَمْتُ، وَإِنْ رُمْتُ مِنْها فُـرْجَةً تَضَـايَقَتْ وَالْتَحَمَتْ، وَأَمَّا الْـوَحْشَةُ فَقَدِ اصْطَبَحتُ مِنْهَا كَأْسـاً مُتْرَعَـةً، وتَجَـرَّعتُ مِنْ صَـابِهَا أَمَـرَّ جُرْعَـةٍ، ورَأَيْتُ فُـؤَادِي إِذَا مَرَّ ذِكْرُ مَوْلَايَ، يَكَادُ يَخْرُجُ مِنْ خِدْرِهِ، وَيَرْغَبُ فِي مُفَارَقَـةِ صَدْرِهِ، حَنِينـاً يُجَـدِّدُهُ السَّمَـاعُ، وَصُـدُوداً تَنْتَفِضُ مِنْـهُ الْأَضْـلَاعُ[2] وَزَفْـرَةً يَـدْمِي فِيَّ غِرَارُهَا، وَيَطْلُـعُ فِي التَّرائِبِ[3] شَرَارُهَا:

أُدَارِي شَجَاهَا[4] كَيْ تُخَلِّي مَكَـانَهَا وَهَيْهَـاتَ أَلْقَتْ رَحْلَهَـا وَاطْمَـأَنَّتِ

وَأَمَّـا ما أُعـانِي بَعْدَ مَسِيـرِهِ فَـأَشْيَـاءُ: مِنْهـا عَيْثُ[5] الْأَلَمِ مَـرَّةً، وَزَوَالُ الاسْتِمْتَاعِ بِمَا يَعْرِفُهُ مِنْ تِلْكَ الْمَسَرَّةِ، وَمِنْها اضْـطِرَارِي إِلَى كَثْرَةِ مُكَـابَرَةِ مَنْ أَعْلَمُ دَخَـلَ[6] سَرَائِـرِهِ، وَاخْتِلَافَ بَـاطِنِهِ وَظَـاهِرِهِ، وَتَكَلُّف اللِّقَـاءِ لَـهُ بِصَفْحَةٍ

---

(١) تخف الحليم: من أخف: أي تزيل حلمه وتحمله على الخفة.

(٢) في الأصل: الأظلاع.

(٣) الترائب: عظام الصدر. جمع تربة.

(٤) الشجى: الهم والحزن.

(٥) العيث: مصـدر عـاث الشيء يعيث يـريـد الإفسـاد وفي رأيي أنها عبء الألم أي ثقله «عبد الخالق».

(٦) في الأصل «دخل سرائره» الدخـل: العـداوة والحقـد، والجمـع أدخال ودخـول، وقد جعلناها «دخل» لمناسبة ما بعدها.

مُسْتَبْشِرَةٍ، وَأَخْلَاقٍ غَيْرِ مُتَوَعِّرَةٍ، واللَّهُ يَعْلَمُ نُفُورَ طِبَاعِي مِمَّنْ رَآهُ أَهْلُ الْأَدَبِ مِنَ الْأَدَبِ غُفْلًا[1]، وَمِنْ ذَخَائِرِهِ مُقْفَلًا، لَكِنَّ السِّيَاسَةَ تَقْتَضِي آعْتِمَادَ مَا ذَكَرْتُ، وَتُوجِبُ قَصْدَ مَا شَرَحْتُ، وَإِنْ كَانَ مَوْرِداً غَيْرَ عَذْبٍ، وَثَقِيلًا عَلَى الْعَيْنِ وَالْقَلْبِ:

وَلَرُبَّمَا آبْتَسَمَ الْفَتَى وَفُؤَادُهُ ... شَرِقُ التضلُّعِ بِرَنَّةٍ وَعَوِيلِ

وَمِنْهَا انْعِكَاسُ كَثِيرٍ مِنَ الآمَالِ، وَآرْتِشَافُ[2] الصُّبَابَةِ الْبَاقِيَةِ مِنَ الْحَالِ، بِجَوَائِحَ[3] مِصْرِيَّةٍ وَشَامِيَّةٍ، وَفُوَادِحَ[4] أَرْضِيَّةٍ وَسَمَاوِيَّةٍ، وَلَا أَشْكُو بَلْ أُسَلِّمُ لَهُ مُذْعِناً، وَأَرَى فِعْلَهُ كَيْفَ تَصَرَّفَتِ الْأَحْوَالُ جَمِيلًا حَسَناً:

وَمَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلنَّوَائِبِ أَصْبَحَتْ ... خَلَائِقُهُ طُرًّا عَلَيْهِ نَوَائِبَا

واللَّهُ تَعَالَى الْمَسْؤُولُ أَنْ يَهَبَ لِي مِنْ قُرْبِ مَوْلَايَ مَا يَأْسُو هَذِهِ الْكُلُومَ، وَيُجَدِّدُ مِنَ الْمَسَرَّةِ عَافِيَ الرُّسُومِ، فَجَمِيعُ الْحَوَادِثِ، وَسَائِرُ النَّوَائِبِ الْكَوَارِثِ، إِذَا قَرُبَتِ الْخُطْوَةُ، وَآسْتُجِيبَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ، تُمْسِي غَيْرَ مَذْكُورَةٍ، وَبِجِنَاحِ التَّجَاوُزِ مَكْفُورَةً.

٢ ــ وَكَتَبَ إِلَى أَبِي الْفَرَجِ الْمُوَفَّقِي جَوَاباً عَنْ رُقْعَةٍ:

وَصَلَتْ رُقْعَةُ مَوْلَايَ وَالصُّبْحُ قَدْ سَلَّ عَلَى الْأُفُقِ مِقْضَبَهُ[5]، وَأَزَالَ بِأَنْوَارِ الْغَزَالَةِ غَيْهَبَهُ[6]، فَكَانَتْ بِشَهَادَةِ اللَّهِ صُبْحَ الآدَابِ وَنَهَارَهَا، وَثِمَارَ الْبَلَاغَةِ

---

(١) غفلا: أي لا نصب له منه.

(٢) الارتشاف: المبالغة في مص الماء.

(٣) الجوائح جمع جائحة: وهي الشدة والمصيبة العظيمة التي تجتاح المال وتستأصله كله.

(٤) الفوادح: خطوب الدهر، جمع فادحة.

(٥) المقضب: آلة القضب، وهو القطع.

(٦) الغيهب: الظلمة.

وَأَزْهَارَهَا، قَدْ تَوَشَّحَتْ بِضُرُوبٍ مِنَ الْفَضْلِ تُقَصِّرُ قَاصِيَةَ الْمَدَى، وَيَجْرِي بِهِ فِي مِضْمَارِ الْأَدَبِ مُفْرَدا:

فَكَأَنَّ رَوْضَ الْحُسْنِ تَنْشُرُهُ الصَّبَا ... فَأَطَلْتُ مِنْ قِرْطَاسِهَا أَتَصَفَّحُ[1]

فَأَمَّا مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ وَصْفِي، فَقَدْ صَارَتْ حَضْرَتُهُ السَّامِيَةُ تَتَسَمَّحُ فِي الشَّهَادَةِ بِذَلِكَ مَعَ مُنَاقَشَتِهَا فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَأَنَّها لَا تُوقِعُ أَلْفَاظَهَا إِلَّا مَوَاقِعَ الْحَقِيقَةِ. فَإِنْ كُنْتُ قَدْ بَهْرَجْتُ عَلَيْهَا فَلْتُرَاجِعْ[2] نَقْدَهَا تَجِدْنِي لَا أَسْتَحِقُّ مِنْ ذَلِكَ الإِسْهَابِ فَصْلًا، وَلَا أُعَدُّ لِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُ أَهْلًا، وبِالْجُمْلَةِ فَاللَّهُ يُنْهِضُنِي بِشُكْرِ هَذَا الإِنْعَامِ الَّذِي يَقِفُ عِنْدَهُ الثَّنَاءُ، وَيَضْلَعُ[3]، وَيَحْصَرُ دُونَهُ الْخَطِيبُ الْمِصْقَعُ:

هَيْهَاتَ تُعْيِي الشَّمْسُ كُلَّ مُرَامِقٍ[4] ... وَيَعُوقُ دُونَ مَنَالِهَا الْعَيُّوقُ[5]

وَأَمَّا الْفَضْلُ الَّذِي أَوْدَعَهُ الرُّقْعَةَ الْكَرِيمَةَ مِنْ قَوْلِهِ: «فَأَمَّا فُلَانٌ فَيَحُلُّ فِي قَوْمِهِ، وَيَفْرَحُ بِالضُّيُوفِ فَرَحَ حَنِيفَةَ بِابْنِ الْوَلِيدِ، قُدُورُهُ عَمَّارِيَّةٌ، وَعَطَسَاتُ جَوَارِيهِ أَسَدِيَّةٌ، وَيَهْوَيْنَ لَوْ خُلِقَ الرِّجَالُ خَلْقَ الضِّبَابِ، يَتَضَوَّعْنَ النَّشْرَ الْعَبْقَسِيَّ، وَيَرْضَعْنَ مَرَاضِعَ ثُعَالَةَ الْمُجَاشِعِيِّ» وَمَا أَمَرَتْ حَضْرَتُهُ السَّامِيَةُ مِنْ ذِكْرِ مَا عِنْدِي فِيهِ فَقَدْ تَأَمَّلْتُهُ طَوِيلًا، وَعَثَرَ الْخَادِمُ فِيهِ، بِمَا أَنَا ذَاكِرُهُ، رَاغِباً فِي الرِّضَا بِمَا بَلَغَتْ إِلَيْهِ الْمَقْدُرَةُ، وَتَجْلِيلِ ذَلِكَ بِسُجُوفِ[6] الصَّفْحِ. أَمَّا قَوْلُهُ:

---

(١) عجز البيت كما في العماد، وفي الأصل: «فأطلعت» وأصلها أطللت فحذفت العين فصار أطلت على حد قولهم في أقررت أقرت «عبد الخالق».

(٢) في الأصل: فتراجع.

(٣) يضلع: أي يعيا لأنه لا يفي بما لك.

(٤) المرامق: الذي ينظر إلى الشيء.

(٥) العيوق: نجم أحمر مضيء يتلو الثريا لا يتقدمها.

(٦) السجوف جمع سجف وسجاف: وهو الستر.

«يَفْرَحُ بِالضُّيُوفِ فَرَحَ حَنِيفَةَ بِابْنِ الْوَلِيدِ» فَيَقَعُ لِي أَنَّهُ أَرادَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ الْمَخْزُومِيَّ، وَذَلِكَ أَنَّ مُسَيْلِمَةَ الْحَنَفِيَّ كَانَ قد تَنَبَّأَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَحَدِيثُهُ مَشْهُورٌ ـ فَبَعَثَ إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ الْمُقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَفَتَحَ الْيَمَامَةَ وَقَتَلَ مُسَيْلِمَةَ وَأَبَادَ جَمَاعَةً كَثِيرةً مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ[1]. وَأَمَّا قَوْلُهُ: «قُدُورُهُ عَمَّارِيَّةٌ» فَإِنَّ هَذَا الْفَصْلَ لَمَّا كَانَ مَبْنِياً عَلَى الذَّمِّ وَجَبَ أَنْ يُتَطَلَّبَ لِهَذَا السَّبَبِ مَعْنىً يَجِبُ حَمْلُهُ عَلَيْهِ، وَلَمْ نَجِدْ مَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ إِلاَّ قَوْلَ الْفَرَزْدَقِ:

لَوْ أَنَّ قِدْراً بَكَتْ مِنْ طُولِ مَا حُبِسَتْ ... عَنِ[2] الْخُقُوقِ بَكَتْ قِدْرُ ابْنِ عَمَّارِ
مَا مَسَّهَا دَسَمٌ مُذْ فُضَّ[3] مَعْدِنُهَا ... وَلاَ رَأَتْ بَعْدَ نَارِ الْقَيْنِ مِنْ نَارِ

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «عَطَسَاتُ جَوَارِيهِ أَسَدِيَّةٌ» فَيَقْوَى فِي وَهْمِي أَنَّهُ أَرَادَ قَوْلَ الْأَوَّلِ فِي هِجَائِهِ:

إِذَا أَسَدِيَّةٌ عَطَسَتْ ..... فَإِنَّ عُطَاسَهَا طُرُقُ الْوِدَاقِ[4]

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «يَهْوَيْنَ لَوْ خُلِقَ الرَّجُلُ خَلْقَ الضِّبَابِ» فَإِنَّ الْجَاحِظَ ذَكَرَ فِي كِتَابِ الْحَيَوَانِ، أَنَّ لِلضَّبِّ ذكريْنِ وَلِلضَّبَّةِ حِرَيْنِ، وَحَكَى أَنَّ ذكر الضَّبِّ أَصْلُهُ وَاحِدٌ، وَإِنَّمَا يَتَفَرَّقُ فَيَصِيرُ أَعْلاَهُ اثْنَيْنِ، وَاسْتَشْهَدَ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِ الْفَرَزْدَقِ[5]:

---

(١) وأرى أن هذا لا يكون فكيف تفرح حنيفة بخالد، وقد أباد من أباد إلا إن قلنا إن حنيفة كانت تكره مسيلمة.

(٢) في الأصل: على.

(٣) فض: أي ثقب: والقين: الحداد.

(٤) الوداق: اسم من ودقت ذات الحافر ودقا: أرادت الفحل، فهي وادق.

(٥) في كتاب الحيوان «٦: ٢٢» أورد للفرزدق أربعة أبيات، منها البيتان.

رَعَيْنَ الـدَّبَا وَالْبَقْـلَ حَتَّى كَـأَنَّمـا كَسَـاهُنَّ سُلْطَانٌ ثِيَـابَ مَـرَاجِـلِ
سِبَحْـلٌ لَـهُ نِـزْكَـانِ كَـانَـا فَضِيلَةً عَلَى كُـلِّ حَافٍ فِي الْبِـلَادِ وَنَـاعِـلِ

والنِّـزْكُ: اسْمُ ذكر الضَّبِّ. وَأَنْشَـدَ الأَصْمَعِيُّ لابْنِ دَرَّمَـاءَ فِيمَـا رَوَاهُ أَبُو خَالِدٍ النُّمَيْرِيُّ[1]:

تَـفَـرَّقْـتُـمُ لَا زِلْـتُـمُ قِـرْنَ وَاحِـدٍ تفَرُّقَ. . . . الضَّبِّ والأَصْـلُ وَاحِـدُ

وَمِنْ هَهُنَا قَـالَتْ حُبَّى[2] الْمَـدَنِيَّـةُ لَمَّـا عَـذَلَهَا أَبُـوهَـا فِي تَـزَوُّجِهَـا ابْنَ أُمِّ كِلَابٍ:

وَدِدْتُ بِـأَنَّـهُ ضَـبٌّ وَأَنِّـي ضُبَيْبَـةُ كُـدْيَـةٍ[3] وَجَـدَتْ خَـلَاءَ

أَمَّـا قَوْلُـهُ: «يَتَضَوَّعْنَ النَّشْـرَ» فَمِنْ أَمْثَالِ الْعَـرَبِ: هُـوَ أَخْسَـرُ صَفقة مِنْ شَيخِ مَهْـوٍ، وَهُـوَ بَـطْنٌ مِنْ عَبْـدِ الْقَيْسِ بْنِ أَفْصَى بْنِ دُعْمِيِّ بْنِ جَـدِيلَةَ بْنِ أَسَدِ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ، وَكَانَ مِنْ خَبَـرِهِ أَنَّ إِيَاداً كَـانَتْ أَفْسَى الْعَرَبِ، فَـوَفَدَ وَافِـدُهُمْ إِلَى الْمَوْسِمِ بِسُـوقِ عُكَاظَ وَمَعَـهُ حُلَّةٌ نَفِيسَـةٌ فَقَـالَ: يَـا مَعْشَـرَ الْعَـرَبِ، مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي مَثْلَبَـةَ[4] قَـوْمٍ لَا تَضُـرُّهُ بِحُلَّتِي هَـذِهِ؟ فَقَـالَ الشَّيْـخُ الْمَهْوِيُّ: أَنَا أَشْتَرِيهَا. فَقَالَ الإِيَادِيُّ: أُشْهِـدُكُمْ يَا مَعْشَـرَ الْعَرَبِ أَنِّي قَـدْ بِعْتُ

(١) النميري: هو أبو حية دون أبي خالد، وقد غلط الراوي كثيراً فيما أورده ههنا.

(٢) كـانت بالأصـل: «الحسبى» وأصلحناه إلى «حبى» فهي المشهورة بـأنها كـانت تهـوى ابن أم كلاب، وفي ذلك يقول هدبة بن خشرم العذري:

فـما وجـدت وجـدي بهـا أم واحـد ولا وجـد حـبى بـابن أم كـلاب

وهي حبى بنت الأسود من بني بحتر بن عتود، وكان حريث بن عتاب الطائي يهواها، فخـطبهـا ولم تـرضـه وتـزوجت غـيره من بني ثعـل فـطفق يهجـو بني ثعـل لـذلـك. «أحمد يوسف نجاتي».

(٣) الكـدية والكـداية: الأرض الغليـظة: ويقول ضب الكـدية، وضبـاب الكدي لـولعهـا بحفرها.

(٤) المثلبة بفتح اللام وضمها: اللوم والعيب.

فُسَاءَ إِيَادٍ لِوَافِدِ عَبْدِ الْقَيْسِ بِحُلَّتِي هَذِهِ، وَتَصَافَحَا وَٱفْتَرَقَا مُتَرَاضِيَيْنِ وَقَدْ شَهِدَ عَلَيْهِمَا أَهْلُ الْمَوْسِمِ، فَصَارَتْ عَبْدُ الْقَيْسِ أَفْسَى الْعَرَبِ. وَقِيلَ لابْنِ مَنَاذِرِ[1]: كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى عَبْدِ الْقَيْسِ؟ فَقَالَ شُمَّ وَمُرَّ:

فَإِنَّ عَبْدَ الْقَيْسِ مِنْ لُؤْمِهَا تَفْسُو فُسَاءً رِيحُهُ تَعْبَقُ
مَنْ كَانَ لَا يَدْرِي لَهَا مَنْزِلاً فَقُلْ لَهُ يَمْشِي وَيَسْتَنْشِقُ

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «أَعْطَشُ مِنْ ثُعَالَةَ الْمُجَاشِعِيِّ» فَمِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ فِيمَا ذَكَرَهُ الْكَلْبِيُّ قَالَ: هُمَا رَجُلَانِ مِنْ بَنِي مُجَاشِعٍ عَطِشَا فَالْتَقَمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ذكر صَاحِبِهِ يَشْرَبُ بَوْلَهُ، فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا شَيْئاً، وَمَاتَا عَطْشاً وَوُجِدا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ. قَالَ جَرِيرٌ يَهْجُو بَنِي دَارِمٍ:

رَضَعْتُمْ ثُمَّ بَالَ عَلَى لِحَاكُمْ ثُعَالَةُ حِينَ لَمْ يَجِدَا الشَّرَابَا

هَذَا مَا وَقَعَ لِي فِي هَذَا الْفَصْلِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ[2] قَدْ ذَهَبْتُ إِلَى مَا قَصَدَهُ قَائِلُهُ.

٣ ــ وَمِنْ كَلَامِهِ يُهَنِّئُ بِكَسْرِ أَتْسِزَ[3] بْنِ أَوْقٍ الْغَزِّيِّ

وَكَانَ ذَلِكَ لِثَمَانِ سَاعَاتٍ مَضَيْنَ مِنْ يَوْمِ الاثْنَيْنِ فِي الْعَشْرِ الْأَخِيرَةِ مِنْ جُمَادَى الآخِرَةِ، سَنَةَ تِسْعٍ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً، وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ

---

(١) مناذر: بفتح الميم وقد تضم شاعر بصري وسمي كذلك لأنه منذر بن منذر بن منذر.
(٢) في الأصل: تكون.
(٣) هو أتسز بن أوق الخوارزمي التركماني صاحب الشام، ومقدم الأتراك ظهر سنة ٤٦٣، وفتح الرملة وبيت المقدس، وضايق دمشق، وخرب الشام، وفي سنة ٤٦٨ استولى على دمشق، وخطب بها للخليفة المقتدي العباسي، وقتله تاج الدولة تتش السلجوقي سنة ٤٦٨، واستولى على الشام. «أحمد يوسف نجاتي».

الْوَكِيلُ *فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ، واللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قَدِ ارْتَفَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ الْكَافَّةِ أَنَّ اللَّهَ ذَخَرَ لِلدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ ـ ثَبَّتَ اللَّهُ أَرْكَانَهَا ـ، مِنَ الْحَضْرَةِ الْعَلِيَّةِ الْمَنْصُورَةِ الْجُيُوشِيَّةِ ـ خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهَا ـ، مَنْ حَمَى سَوَادَهَا، وَنَصَرَ أَعْلَامَهَا، وَضَمَّ نَشْرَهَا، وَحَفِظَ سَرِيرَهَا وَمِنْبَرَهَا، بَعْدَ أَنْ كَانَ الْأَعْدَاءُ الَّذِينَ ارْتَضَعُوا دَرَّ إِنْعَامِهَا، وَتَوَسَّمُوا بِشَرَفِ أَيَّامِهَا، فَطَرَدَتْ يَدُ الاصْطِنَاعِ[1] إِمْلَاقَهُمْ، وَأَثْقَلَتْ قَلَائِدُ الإِحْسَانِ أَعْنَاقَهُمْ، فَخَفَرُوا[2] ذِمَمَ الْوَلَاءِ، وَكَفَرُوا سَوَابِغَ الآلَاءِ، فَفَجَأَتْهُمُ الْحَوَادِثُ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ، وَنَعَبَ بِهِمْ غُرَابُ الشَّتَاتِ وَالتَّفْرِيقِ، وَاسْتَبَاحَتْهُمْ يَدُ الشَّدَائِدِ و﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾، وَلَمْ تَزَلِ النُّفُوسُ مُنْذُ طَرَقَ أَتْسِزُ اللَّعِينُ هَذِهِ الْبِلَادَ، وَأَنْجَمَ فِيهَا أَنْجُمَ الْفَسَادِ، وَتَعَدَّى حُدُودَ اللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَتَعَرَّضَ لِمُسَاخَطَتِهِ وَنِقْمَاتِهِ، عَالِمَةً بِأَنَّ إِمْلَاءَ الْحَضْرَةِ الْعَلِيَّةِ ـ مَدَّ اللَّهُ ظِلَّهَا عَلَى الْكَافَّةِ ـ لَمْ يَكُنْ عَنِ اسْتِعْمَالِ رُخْصَةٍ فِي هَذِهِ الْحَالِ، وَلَا سُكُونٍ إِلَى عَوَارِضَ مِنَ الإِغْفَالِ وَالإِهْمَالِ، بَلْ هُوَ أَمْرٌ رُكِبَ فِيهِ مَتْنُ التَّدْبِيرِ، وَجَرَتْ بِمِثْلِهِ[3] الْمَقَادِيرُ، وَاتُّبِعَ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمْلَيْتُ[4] لِلَّذِينَ كَفَرُوا، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ وَحِينَ خَدَعَتْهُ[5] الْمَطَامِعُ الْمُرْدِيَةُ إِلَى الأَعْمَالِ الْقَاهِرَةِ مُؤَمِّلًا انْفِصَامَ عُرْوَةِ اللَّهِ الْمَتِينَةِ، وَأُفُولَ مَا تَوَقَّدَ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ، سَكَنَتِ النُّفُوسُ إِلَى أَنَّ الْحَضْرَةَ الْعَلِيَّةَ ـ ثَبَّتَ اللَّهُ مَجْدَهَا ـ سَتُجَرِّدُ

---

(١) الاصطناع: الإحسان، والإملاق: الفقر والحاجة.

(٢) خفر العهد: أي نقضه وغدر.

(٣) في الأصل: «بمقلة» فأصلحت إلى مثله وفي العماد «عليه».

(٤) أملى الله له: أي أمله وطول له.

(٥) في الأصل «خدمته المطالع» وصوابها ما في العماد مما أصلح الأصل به، فإنه مناسب للمقام.

لَـهُ مِنْ عَـزَمَاتِهـا الْمَاضِيَـةِ مَا يُعَجِّـلُ دَمَـارَهُ[1]، وَتَنْتَهِي لَـهُ مِنْ آرَائِهَـا الْكَـامِلَةِ مَـا يُعَفِّي آثَارَهُ، وَحِينَ آصْـطَدَمَتِ الرِّجَـالُ، وَتَـوَالَتِ الْأَنْبَـاءُ بِانْكِسَـارِ اللَّعِينِ، وَمَا مُنِحَتْهُ الْحَضْرَةُ مِنَ النَّصْرِ الْمُبِينِ، حَتَّى نُهِبَتِ الْأَمْـوَالُ، وَتَحَكَّمَتِ السُّيُوفُ بِحُكْمِ الْقَـادِرِ الْغَـالِبِ. وَأَكَلَتْهُمُ الْحَـرْبُ أَكْلَ الْغَـرْثَانِ[2] السَّـاغِبِ، وَأَنْشَبَتْ فِيهِمْ أَظْفَـارَهَـا الْمَنِيَّـةُ، وَكُسِيَتِ الْأَرْضُ مِنْ دِمَـائِهِمْ حُلَّةً عَسْجَـدِيَّـةً، وَوَلَّى الْمَخْذُولُ عَلَى أَدْبَارِهِ، وَنَكَصَ عَلَى أَعْقَـابِهِ بِـوَبِيلِ أَوْزَارِهِ، يَخَـافُ مِنْ نُجُومِ اللَّيْلِ أَنْ تَرْجُمَـهُ، وَمِنْ شَمْسِ النَّهَارِ أَنْ تَصْـطَلِمَهُ، وَتَـرَكَ مَا مَعَـهُ يُقَسَّمُ يَمِيناً وَشِمَـالاً، وَمَنْ حَشَدَهُ يُقْتَـلُ رُكْبَانـاً وَرِجَالاً، عَلِمَ أَنَّ لِلَّهِ تَعَـالَى عِنَايَـةً بِالـدَّوْلَةِ الـزَّاهِرَةِ، وَتَحَقَّقَ أَنَّ لَـهُ سُبْحَـانَهُ رِعَـايَةً بِـالْمِلَّةِ الـطَّاهِـرَةِ، تَحُـوطُ أَقْـطَارَهَـا، وَتُضَاعِفُ أَنْوَارَهَا، وَلُطْفاً خَفِيًّا بِهَذِهِ الرَّعِيَّةِ، وَمَشِيئَةً نَافِذَةً فِي هَذِهِ الْبَرِيَّةِ، الَّتِي لَوْلَا مَقَامُ الْحَضْرَةِ الْعَلِيَّةِ لَمُزِّقَ أَدِيمُهَا، وَآسْتُبِيحَ حَرِيمُهَا، وَاللَّهُ الْمَحْمُودُ عَلَى مَـا مَنَـحَ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَـةِ، وَالْمَسْـؤُولُ أَنْ يَشُدَّ بِبَقَـاءِ الْحَضْـرَةِ الْعَلِيَّـةِ قَـوَاعِـدَ الْإِسْلَامِ، وَيَسِمَ بِمَحَامِـدِهَا أَغْفَـالَ الْأَيَّامِ، وَيَسْتَخْـدِمَ لَهَا السُّيُـوفَ وَالْأَقْلَامَ، حَتَّى لَا يَبْقَى عَلَى وَجْـهِ الْأَرْضِ مَفْحَصُ[3] قَطَاةٍ إِلَّا وَقَـدْ دَوَّخَهَـا سَنَـابِـكُ[4] خُيُولِهَا، وَلَا مَسْقَطُ نَوَاةٍ إِلَّا وَقَدْ رَكَّزَتْ فِيهِ صُدُورَ رِمَاحِهَا وَنُصُولِهَا، فَقَدْ دَفَعَتْ ـ أَدَامَ اللَّهُ جَمَالَ الدُّنْيَا بِبَقَائِهَا، وَأَعَزَّ كَمَالَ الدِّينِ بِبَأْسِهَا وَأَصَالَةِ رَأْيِهَا ـ خَطْباً جَسِيمـاً، وَآسْتَلْقَحَتْ مِنَ السِّيَاسَـةِ أَمْراً عَقِيمـاً، وَأَعَادَتْ شَمْـلَ الْأُمَّةِ مَلْمُـوماً نَظِيماً ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُـؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَكَـانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْـكَ عَظِيمـاً﴾ فَأَمَّـا

---

(١) الدمار: الهلاك، وفي الأصل «ذماره بالذال».

(٢) الغرثان: الجائع.

(٣) مفحص القطاة: مجثمها، وهـو الموضـع الـذي تفحص التراب عنه، أي تكشفه وتنحيه لتبيض فيه.

(٤) سنابك الخيل: حوافرها.

الْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ فَقَدْ تَلاَعَبَتْ بِهِ أَيْدِي الأَقْدَارِ، وَقَذَفَتْهُ الْعُطْلَةُ فِي هُوَّةٍ بَعِيدَةِ الأَقْطَارِ، وَهُوَ يَعِدُ نَفْسَهُ وَيُوَقِّيهَا، وَيُسَوِّفُهَا وَيُمَنِّيهَا، أَنَّ مَرَاحِمَ الْحَضْرَةِ نَصَرَ اللَّهُ أَعْلاَمَهَا، تُعِيدُ[1] كَسَادَ بِضَاعَتِهِ نَفَاقاً، وَانْضِطْرَابَ حَالِهِ انْتِظَاماً وَاتِّسَاقاً، وَسُكُونَ رِيحِهِ خُفُوقاً[2]، وَغُرُوبَ حَظِّهِ شُرُوقاً، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

٤ ـ وَكَتَبَ إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِ

أَغَبَّ كِتَابُ مَوْلاَيَ حَتَّى أَضْرَمَ نَاراً فِي الْفُؤَادِ، وَحَالَفَ بَيْنَ جَفْنِي وَالسُّهادِ:

ثُمَّ وَافَى بِلَفْظِهِ الرَّائِقِ الْعَذْ ... بِ وَأَغْنَى عَنِ الزُّلاَلِ[3] الْبَرُودِ

وَقَوْلُهُ أَيْضاً:

وَقَرَأْتُهُ مُتَنَزِّهاً ... فِي رَوْضِهِ وَغَدِيرِهِ
جَمَعَ الْبَلاَغَةَ كُلَّهَا ... تَخْتَالُ بَيْنَ سُطُورِهِ
فَالدُّرُّ فِي مَنْظُومِهِ ... وَالسِّحْرُ فِي مَنْثُورِهِ

وَعَرَفْتُ ذِكْرَ الشَّوْقِ الَّذِي هَيَّجَ أَحْزَاناً، وَنَكَأَ[4] قُرْحاً لا يَنْدَمِلُ زَمَاناً، وَإِنَّ عِنْدِي بِشَهَادَةِ اللَّهِ مَا يُضْرِمُ نَارَهُ وَيُشِبُّ[5] أُوَارَهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُسَهِّلُ مِنْ أَلْطَافِهِ الْخَفِيَّةِ مَا يَجْمَعُ الشَّمْلَ، وَيَصِلُ الْحَبْلَ، وَيُقَرِّبُ الدَّارَ، وَيُدْنِي الْمَزَارَ، بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَالأَئِمَّةِ الأَطْهَارِ.

---

(١) في الأصل: تسعد.
(٢) خفقت الريح: صوتت بهبوبها، وسمع لها حفيف ودوي.
(٣) وفي الأصل الذي في مكتبة أكسفورد «الزلزال».
(٤) نكأ القرحة ينكؤها نكأ: قشرها قبل أن تبرأ فنديت.
(٥) أشب النار وشبها: أوقدها وأذكاها. والأوار: اسم من أورى الزند إيراء: أخرج ناره.

وَأَمَّا حَالِي بَعْدَهُ، وَارْتِيَاحِي إِلَى مَا عِنْدَهُ، وَتَأَسُّفِي عَلَى الْفَائِتِ مِنْ أَخْلَاقِهِ الَّتِي هِيَ مِنَ الْحُسْنِ أَدَقُّ، وَمِنَ الْمَاءِ أَصْفَى وَأَرَقُّ: فَحَالُ صَبٍّ أُخِذَ مَا فِي فُؤَادِهِ، وَحُولِفَ بَيْنَ طَرْفِهِ وَسُهَادِهِ، فَحُرِمَ لِذَلِكَ لَذِيذَ رُقَادِهِ، وَأَمَّا عَتْبُهُ عَلَيَّ لِتَأَخُّرِ كُتُبِي عَنْهُ، وَبُعْدِهَا مِنْهُ: فَهُوَ يَعْلَمُ ـ حَرَسَ اللَّهُ مُدَّتَهُ ـ أَنَّنِي إِذَا وَاصَلْتُ أَوْ أَغْبَبْتُ أَنَّهُ سَمِيرُ خَاطِرِي، وَإِنْ غَابَ عَنْ نَاظِرِي، وَهُوَ نَازِلٌ بِضَمَائِرِي، وَإِنْ بَانَ مِنْ بَيْنِ مُخَالِطِي وَمُعَاشِرِي:

يَا غَائِباً عَنْ نَاظِرِي ... وَحَاضِراً فِي خَاطِرِي
لا تَنْخَشَ مِنِّي جَفْوَةً ... فَبَاطِنِي كَالظَّاهِرِ

واللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أُغْفِلْ كِتَابَهُ صَرْماً وَهَجْراً، وَلَا أَهْمَلْتُ مُجَاوَبَتَهُ نَقْضاً لِمَوَدَّتِهِ الْكَرِيمَةِ وَلَا غَدْراً، فَإِنَّهُ مِنَ الْعَيْنِ بِمَكَانِ السَّوَادِ، وَمِنَ الصَّدْرِ بِمَوْضِعِ الْفُؤَادِ، وَبِسَبَبِ هَذَا الاعْتِقَادِ وَمَا ذَكَرْتُ مِنْ مَحْضِ الْوِدَادِ، أَبُثُّهُ أَشْجَاناً، وَأُطْلِعُهُ عَلَى أَسْرَارِي إِسْرَاراً وَإِعْلَاناً، ثِقَةً بِوُدِّهِ، وَتَمَسُّكاً بِوَثِيقِ عَهْدِهِ وَعَقْدِهِ، ـ لَوْ رَآنِي فَسَحَ اللَّهُ مُدَّتَهُ، وَضَاعَفَ عَلَي مَوَدَّتَهُ ـ، لَرَأَى صَبًّا قَلْبُهُ خَفِيقٌ، وَدَمْعُهُ طَلِيقٌ:

قَلِقُ الضَّمِيرِ بِظَبْيَةٍ وَهْنَانَةٍ[1] ... فَلَهَا بِقَلْبِي هِزَّةٌ وَعُلُوقُ
اَلْوَجْهُ طَلْقٌ وَالْوِشَاحُ مُهَفْهَفٌ ... وَالرِّدْفُ دِعْصٌ[2] وَالْقَوَامُ رَشِيقُ
وَتَبَسَّمَتْ عَنْ وَاضِحٍ فَضَحَتْ بِهِ ... سَطْعَ الْبُرُوقِ وَنَمَّ مِنْهُ رَحِيقُ

هَذِهِ الْأَبْيَاتُ تُغْنِي عَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَشْرَحَهُ، وَتُنْبِيءُ عَنْ مَكْنُونِ مَا سَبِيلِي أَن أُثْبِتَهُ وَأُوَضِّحَهُ واللَّهُ المَسْؤولُ أَنْ يَقْضِيَ مَأْرَبِي بِسَعَادَةِ جَدِّهِ، وَيُزِيلَ عَنِّي

(١) الوهنانة من النساء: التي فيها فتور وأناة عند القيام.
(٢) الدعص: الكثيب من الرمل المجتمع. وشبه الردف بالدعص: لكثرة اللحم عليه.

مَا أَخْشَاهُ بِتَمَامِ إِقْبَالِهِ وَمَجْدِهِ، وَكِتَابُهُ هُوَ فُسْحَةٌ لِلصَّدْرِ، وَمُنْيَةُ مَا يُطْلَبُ مِنَ الدَّهْرِ، ولِرَأْيِهِ عُلُوُّهُ فِي إِمْضَائِهِ إِلَيَّ وَوُفُودِهِ عَلَيَّ.

٥ ــ وَكَتَبَ إِلَى ٱبْنِ الْمُغْرَبِيِّ يُهَنِّئُهُ بِالْفُتُوحِ:

ــ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ سَيِّدِنَا الْوَزِيرِ الأَجَلِّ ــ، مَا سَطَعَ الصُّبْحُ بِعَمُودِهِ، وَهْمْهَمَ[1] السَّحَابُ بِرُعُودِهِ، وَطَلَعَتْ فِي الأُفُقِ أَنْجُمُ سُعُودِهِ:

نعتُدُّهُ ذُخْرَ الْعُلَا وَعَتَادَهَا[2] ... وَنَرَاهُ مِنْ كَرَمِ الزَّمَانِ وَجُودِهِ
الدَّهْرُ يَضْحَكُ مِنَ بَشَاشَةِ بِشْرِهِ ... وَالْعَيْشُ يَطْرَبُ مِنْ نَضَارَةِ عُودِهِ

فَقَدْ أَلْبَسَ اللَّهُ الدَّهْرَ مِنْ مَنَاقِبِ الْحَضْرَةِ السَّامِيَةِ مَا أَخْرَسَ الأَئِمَّةَ، وَأَفَاضَ عَلَى الْكَافَّةِ مِنْ آلَائِهَا مَا تَمْلِكُ بِهِ رِقَّ الْمَآثِرِ، وَيَعْجِزُ عَنْهُ كُلُّ نَاظِمٍ وَنَاثِرٍ، يَقْصُرُ عَنْهُ لِسَانُ الْبَلِيغِ وَيَفْضُلُ عَنْ مُقْلَةِ النَّاظِرِ، فَمَا يَنْفَكُّ ــ خَلَّدَ اللَّهُ أَيَّامَهُ ــ يَذُودُ عِنَ الدَّوْلَةِ بِرَأْيٍ صَائِبٍ، وَحُسَامٍ قَاضِبٍ، يَتَحَاسَدُ عَلَيْهِ الدِّرْعُ وَالدِّرَاعَةُ، وَيَتَنَافَسُ فِيهِ الصَّمْصَامَةُ وَالْيَرَاعَةُ، والْمُلْكُ بَيْنَ هَذَيْنِ مَتِينُ الْعِمَادِ، مُسْتَبْحِرُ الثِّمَادِ[3]:

مَا زَالَ قَائِدَ كَتْبَةٍ وَكَتِيبَةٍ ... بِأَصِيلِ رَأْيَيْ مُنْصُلٍ[4] وَفُؤَادِ
شِبْهَانِ مِنْ قَلَمٍ وَمِنْ صَمْصَامَةٍ ... شُهِرَا لِيَوْمِ نَدىً وَيَوْمِ جِلَادِ

وَمَا وَقَفَتْ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَوْقِفاً وَحْشِياً، وَلَا وَقَعَ عِنْدَهَا مَوْقِعاً أَجْنَبِيًّا، بَلِ ٱقْتَفَتْ آثَارَ أَسْلَافٍ خَفَقَتْ عَلَيْهِمْ أَلْوِيَةُ الْمَعَالِي وَبُنُودُهَا، وَوُسِمَتْ

---

(١) الهمهمة: كل صوت معه بحح.

(٢) العتاد: العدة.

(٣) صوابه: مستبحر الثماد بالثاء كما ذكرنا: وهو القليل من الماء ــ والمعنى أن القليل في عصر غيره من الملوك صار كثيراً وافياً في عصره، وكانت في الأصل «مستحبر التماد».

(٤) المنصل: بفتح الصاد وضمها: السيف، والجمع مناصل.

بِأَسْمَائِهِمْ جِبَاهُ الْمَمَالِكِ وَخُدُودُهَا، وَتَحَيَّفَ[1] الْكَرَمُ أَمْوَالَهُمْ وَهِيَ أَثِينَةُ[2] الْجَنَاحِ، وَذَلَّلَتْ عَزَائِمُهُمُ النُّوبَ وَهِيَ شَدِيدَةُ الْجِمَاحِ:

كُتَّابُ مُلْكٍ يَسْتَقِيمُ بِرَأْيِهِمْ أَوَدُ الْخِلَافَةِ أَوْ أُسُودُ صَبَاحِ
بِصُدُورِ أَقْلَامٍ تَرُدُّ إِلَيْهِمُ شَرَفَ الرِّيَاسَةِ أَوْ صُدُورِ رِمَاحِ

كَانَ الْعَبْدُ خَدَمَ الْمَجْلِسَ السَّامِيَ بِخِدْمَةٍ قَصْدُها التَّهْنِئَةُ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الظَّفْرِ بِالْعَدُوِّ الَّذِي أَطَاعَ شَيْطَانَهُ، وَمَدَّ فِي مَضْمَارِ الْغَيِّ أَشْطَانَهُ، وَاتَّبَعَ مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهَ رِضْوَانَهُ، وَجَرَى اللَّهُ عَلَى جَمِيلِ عَادَتِهِ فِي زَلْزَلَةِ أَطْوَادِهِ[3]، وَاسْتِئْصَالِ أَحْزَابِهِ وَأَجْنَادِهِ، الَّذِينَ غَدَتِ الرِّمَاحُ تَسْتَقِي مِيَاهَ نُحُورِهِمْ، وَالسُّيُوفُ تَنْتَهِبُ وَدَائِعَ صُدُورِهِمْ، وَالْحِمَامُ يَجُولُ عَلَيْهِمْ كُلَّ مَجَالٍ، وَيَسْتَدْنِي إِلَيْهِمْ نَوَازِحَ الآجَالِ:

مَا طَالَ بَغْيٌ قَطُّ إِلَّا غَادَرَتْ فَعَلَاتُهُ الْأَعْمَارَ غَيْرَ طِوَالِ
فَتْحٌ أَضَاءَ بِهِ الزَّمَانُ وَفَتَّحَتْ فِيهِ الأَسِنَّةُ زَهْرَةَ الآمَالِ

وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ التَّوْفِيقُ قَضَى بِوُصُولِهَا، وَأَذِنَ فِي قَبُولِهَا، فَيَمْتَدَّ ظِلٌّ، وَيُثْرَى مُقِلٌّ، وَيَصُوبَ عَارِضٌ مُسْتَهِلٌّ[4].

---

(١) تحيفه: تنقصه من حيفه، أي من نواحيه، كتحوفه.

(٢) الأثيث: الأث: يقال: نبت أثيث وشعر أثيث: أي كثير عظيم.

(٣) الطود: الجبل المنيف الثابت في مقره ــ وهو مستعار للحصون والقلاع.

(٤) أظنه تصحيف بيت صوابه:

أممتد ظل يثرى مقل فيمتد ظل ويثرى المقل
من صوب عارض مستهل

والبيت بعده يحقق ما أقول فهو في سوقه ومن بحره.

أَيَعْجِزُ فَضْلُكَ عَنْ خَادِمٍ وَأَنْتَ بِأَمْرِ الْوَرَى مُسْتَقِلُّ؟

وَبِحُكْمِ مَا الْعَبْدُ عَلَيْهِ مِنْ تَطَلُّعِ الْأَمَلِ الْقَوِيِّ، وَتَوَقُّعِ الْإِنْعَامِ الْكَسْرَوِيِّ، عَزَّزَهَا بِهَذِهِ الْمُنَاجَاةِ، وَإِنْ كَانَ عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ رِشَاهُ قَدْ أُلْقِيَ فِي الْغَدِيرِ الْقَرِيبِ، وَرَائِدُهُ[1] قَدْ خَيَّمَ بِالْمَرْتَعِ الْخَصِيبِ:

لَوْ رَأَيْنَا التَّوْكِيدَ خُطَّةَ عَجْزٍ مَا شَفَعْنَا الْأَذَانَ بِالتَّثْوِيبِ[2]

وَلَهُ ـ أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ ـ الرَّأْيُ الْعَالِي فِيهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

٦ ـ وَكَتَبَ إِلَى صَارِمِ الدَّوْلَةِ بْنِ مَعْرُوفٍ:

أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْحَضْرَةِ الصَّارِمِيَّةِ ـ يَجْرِي الْقَدَرُ عَلَى حَسَبِ أَهْوِيَتِهَا، وَيُعْقَدُ الظَّفَرُ بِعِزَائِمِ أَلْوِيَتِهَا، وَيُحَلَّى بِذِكْرِهَا تَرَائِبُ الْأَيَّامِ الْعَاطِلَةِ، وَيُنْجَزُ بِكَرَمِهَا عِدَاتُ الْحُظُوظِ الْمُمَاطِلَةِ، مَا أَصْحَبَ[3] الْجَامِحُ، وَأَضَاءَ السِّمَاكُ الرَّامِحُ، وَعَافَتِ الْمَاءَ الْإِبْلُ الطَّوَامِحُ[4].

وَمَا سَحَبَتْ فِي مَفْرِقِ الْأَرْضِ ذَيْلَهَا خَوَافِقُ رِيحٍ لِلسَّحَابِ لَوَاقِحُ
إِذَا رَفَضَ النَّاسُ الْمَدِيحَ وَطَلَّقُوا بَنَاتِ الْعُلَا زُفَّتْ إِلَيْهِ الْمَدَائِحُ[5]

---

(١) الرائد: هنا: الرسول.

(٢) ثوب المؤذن: دعا الجماعة إلى الصلاة بقوله: حي على الصلاة أو ثنى الدعاء.

(٣) أصحب الجامح: ذل وانقاد والصفة منه مصحب كمحسن بمعنى الذليل المنقاد.

(٤) يقال: طنحت الإبل كفرح بشمت وسمت وهي إذا تعاف الماء وترى في البلاد إبلاً صائمة عن الماء زمن البرسيم ولا تأكل إلا إذا ألقمها قائدها، فلعل الكلمة الطوانح بالنون، ولقد يكون الطوامح من طمح في الطلب أبعد فهي إذاً لا تقبل على الماء جداً فيما يراد منها.

(٥) في الوقت الذي يرفض الناس المدح ويصدون عن المكارم «بنات العلا» يتفسح صدره للمادحين «عبد الخالق».

أَيَّامُ النَّاسِ شُهُودٌ مُخْتَلِفَةٌ فِي الْأَقْوَالِ، وَصُنُوفٌ مُتَبَايِنَةُ الْأَحْوَالُ، فَيَوْمٌ تُؤَرِّخُ السِّيَرُ بِسُودَدِهِ وَسَنائِهِ، وَيَنْطِقُ بِمَحَامِدِ قَوْمٍ أَلْسِنَةُ أَبْنَائِهِ، وَيَوْمٌ يَخْبُو فِي مَوْقِفِ الْجَدِّ شِهَابُهُ، وَيَعْبَقُ بِمِسْكِ الْمُدَامِ إِهَابُهُ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَضْرَةَ السَّامِيَةَ عِقَالَ الْخُطُوبِ الْعَوَارِمِ[1]، وَنِظَامَ الْمَحَاسِنِ وَالْمَكَارِمِ، يَعْتَدُّها الزَّمَنُ نَسِيمَ أَصَائِلِهِ، وَزَهرْ خَمَائِلِهِ، وَشُمُوسَ مَشَارِقِهِ، وَتِيجَانَ مَفَارِقِهِ، فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ ضَمَّ الْيَرَاعَةَ بَنَانُهُ، وَأُطْلِقَ فِي مَيْدَانِ الْبَرَاعَةِ عِنَانُهُ، أَلَّا يُخْلِي مَجْلِسَهُ مِنْ مَدْحٍ مَعْرُوضَةٍ، وَخِدَمٍ مَفْرُوضَةٍ، يُسْهِبُ فِيهَا الْوَاصِفُ، وَيُوجِبُهَا الْإِنْعَامُ الْمُتَرَاصِفُ[2]:

عَسَى مُنَّةٌ تَقْوَى عَلَى شُكْرِ مَنِّهِ ... وَهَيْهَاتَ أَعْيَا الْبَحْرُ مَنْ هُوَ رَاشِفُ

وَلَوْ كُنْتَ لَا تُولِي يَداً مُسْتَجِدَّةً ... إِلَى أَنْ تُوَفَّى شُكْرَ مَا هُوَ سَالِفُ

حَمَيْتَ حَرِيمَ الْمَالِ مِنْ سَطْوَةِ النَّدَى ... وَغَاضَتْ وَحَاشَاهَا لَدَيْكَ الْعَوَارِفُ

وَكَمْ عَزْمَةٍ فِي الشُّكْرِ كَانَتْ قَوِيَّةً ... فَأَضْعَفَهَا إِحْسَانُكَ الْمُتَضَاعِفُ

رَعَى اللَّهُ مَنْ عَمَّ الْبَرِيَّةَ عَدْلُهُ ... فَأَنْصِفَ مَظْلُومٌ وَأُومِنَ خَائِفُ

لَهُ مِنَنٌ فِي حَرْبِ خَطْبٍ عَوَاطِفٌ ... دِمَاثٌ وَفِي صَدْرِ الْخُطُوبِ عَوَاصِفُ[3]

فَكَمْ أَهْلٍ هَدَتْهُ ـ نَصَرَ اللَّهُ عَزَائِمَهَا بَعْدَ الضَّلَالِ ـ، وَحُرٍّ آسْتَنْقَذَتْهُ مِنْ حَبَائِلِ الْإِقْلَالِ، وَمُرْهَفٍ خَفَّفَتْ عَنْهُ وَطْأَةَ الزَّمَنِ الْمُتَثَاقِلِ، وَطَرِيدٍ بَوَّأَتْهُ مِنْ حَرَمِهَا أَمْنَعَ الْمَعَاقِلِ:

مَنَازِلُ عِزٍّ لَوْ يَحُلُّ آبْنُ مُزْنَةٍ[4] ... بِهَا لَسَلَا عَمَّا لَهُ مِنْ مَنَازِلِ

---

(١) العوارم: الشديدة، جمع عارم.

(٢) المتراصف: المتراص.

(٣) في الأصل معاطف بدل «عواطف» وعواطف بدل «عواصف» والدماث جمع دمثة: السهلة اللينة.

(٤) ابن مزنة: المطر.

فَيَا صَارِماً يُعْطِي وَيَنْسَى عَطَاءَهُ ... وَلَمْ نَرَ سَيْفاً ذَا وَفَاءٍ وَنَائِلِ
يَكَادُ يَفِيضُ الْبَرْقُ مِنْ وَجَنَاتِهِ ... إِذَا مَا أَتَاهُ سَائِلٌ بِوَسَائِلِ
إِذَا هُوَ عَرَّى سَيْفَهُ مِنْ غُمُودِهِ ... وَأَفْضَى بِفَضْفَاضٍ[1] مِنَ السَّرْدِ ذَابِلِ
وَقَدْ صَبَغَ النَّقْعُ النَّهَارَ بِصِبْغَةٍ ... تَرَى نَاصِلاً مِنْهَا بَيَاضُ الْمَنَاصِلِ
رَأَيْتَ مُتُونَ الْخَيْلِ تَحْمِلُ ضَيْغَماً ... مَرِيرَ مَذَاقِ الْكَيْدِ حَلْوُ الشَّمَائِلِ
يَلَذُّ لَهُ طَعْمُ الْكُمَاةِ[2] كَأَنَّمَا ... جَرَى الشَّنَبُ الْمَعْسُولُ فَوْقَ الْعَوَاسِلِ
وَكَمْ أَخْرَسَتْ أَطْرَافُهَا مِنْ غَمَاغِمٍ[3] ... لأَقْرَانِهِ وَاسْتَنْطَقَتْ مِنْ ثَوَاكِلِ
مِنَ الْقَوْمِ لَمْ تَتْرُكْ لَهُمْ عِنْدَ كَاشِحٍ ... طِوَالُ رُدَيْنِيَّاتِهِمْ[4] مِنْ طَوَائِلِ
إِذَا مَا سَرَوْا خَلْفَ الْعَدُوِّ وَهَجَّرُوا[5] ... تَظَلَّلُ مِنْ أَرْمَاحِهِمْ فِي ظَلاَئِلِ
وَمَا ذَبَلَتْ يَوْماً خَمِيلَةُ عِزَّةٍ ... إِذَا زُرِعَتْ فِيهَا كُعُوبُ الذَّاوَبِلِ
أَوَائِلُ مَجْدٍ لَمْ يَزَلْ فَاخِراً بِهَا ... تَمِيمُ بْنُ مُرٍّ أَوْ كُلَيْبُ بْنُ وَائِلِ

ثُمَّ جَاءَتْهُ مَنَاقِبُ الْحَضْرَةِ الْعَلِيَّةِ، فَتَمَّ بِهَا مَنَاقِبُ تَمِيمٍ، وَحَكَمَ لآلِ الْقَعْقَاعِ أَمْرٌ حَكِيمٌ، وَنَصَرَ لِوَاءَ بَنِي نَصْرٍ، وَأَبْدَرَتْ أَهِلَّةُ بَنِي بَدْرٍ، وَنَبَّهَ مُنَبِّهُ هَوَازِنَ، وَظَهَرَتْ مُزَيْنَةُ وَمَازِنُ، وَضَحِكَ لِعَبْسٍ عَابِسُ الدَّهْرِ، وَرَاحَتِ الْكَمَلَةُ[6]

---

(١) الفضفاض: الواسع، والسرد: الدرع المسرودة، أي المتداخلة الحلقات منه.

(٢) الكماة: جمع كمي: وهو الشجاع. والشنب هنا: لعاب الفم. والعواسل: الرماح التي تهتز لينا. جمع عاسل.

(٣) غماغم: جمع غمغمة: وهي أصوات الأبطال عند القتال.

(٤) الردينيات: الرمح المنسوبة إلى ردينة، وهي امرأة في خط هجر كانت هي وزوجها سمهر يقومان الرماح. فنسبت إليهما.

(٥) هجرالقوم: أي ساروا في الهاجر وهي اشتداد الحر. ومنه الحديث: «المهجر إلى الجمعة كالمهدي بدنة» يريد ساروا في الهاجر.

(٦) في الأصل «الكلمة» وصوابها ما ذكرنا، والكلمة من بني عبس الذين قالت فيهم أمهم فاطمة بنت الحرشب الأنمارية، وقد سئلت أيهم أفضل، فقالت فلان بل فلان =

كـاملة الْمحـر، ورادت معـايظُ الْأَزْدِ، وقشـرَتْ [1] قُشيـراً عَنْ بُلُوغِ الْمَجْـدِ، وأُغْمـدت سُيُوف بـي عـامد، وصـارتْ هَمْـدَانُ كَـالْجَمْـرِ الْهَـامِـدِ، ومَـذْحِـجُ كـالْعسِ مـذلَّلة. وحميـر بـالـرَّايـة الْحَمْـراءِ مُتَـظَلِّلَةً، وَطَـوتْ طَيِّءُ عَمَلَهَـا آسْتحـداءَ، وغضت حِفْنَةُ جُفُـونهَا آسْتِحْيَـاءً. ــ فَحَرَسَ اللَّهُ مَحَـاسِنَ الْحَضْرَةِ السَّـامية ــ الَّتِي جبـاهُ الْأَنَام بهـا مَوْسُـومَـةٌ، وَتَمَّمَ نِعَمَهَـا الَّتِي هِيَ بَيْنَهَـا وَبَيْنَ النَّاس مقْسُومـةٌ، ولا زالت الدَّوْلَـةُ الْفَاطِمِيَّـةُ تَحْمَدُ عَـزَائِمَهَا الَّتِي شَهِـدَتْ لَهَا بِمُداومةِ الْكَفاءَةِ ــ وأَنْشرتْ مِن النَّصَائِحِ كُلَّ رَمِيمٍ رُفَاتٍ:

كـأَنَّـك حِين ضَـل النَّـاسُ عَنْهَـا ... هُـدِيْتَ إِلَى رِضَا هَـادِي الـرُّعَـاةِ
مُزيـلُ الْمَـال مِن مِلْك الْأَعَـادِي ... وَنَـاظِـمُ شَـمْـلِهِ بَـعْـدَ الشَّـتَـاتِ
سَيُنْـطِقُ بـالثَّنـاء عـلى عـلِيٍّ ... وَعِـتْـرَتِـهِ الْمَنَـابِـرَ صَـامِتَـاتِ
فَـقَـاد لَـهُ إِلَـى سَـعـداد قَـوْداً ... تَـجَلَّى لَـحْمُـهَـا جَنْبَ الْفُـوَاتِ
عَـلَيْهَـا كُـلُّ دَابِـي الْحِلْم ثَبْتٍ ... سَفِيـهِ السَّيْفِ مِنْ بَـعْـدِ الثَّبَـاتِ
كَـأَنَّهُمْ إِذا الْتَحَمُـوا الْمَنَـايَـا[2] ... يُـقِيـدُونَ الْـحَيَـاةَ مِـنَ الْـمَـمَـاتِ

يُسابقُون إلى الْعـدُوِّ الْأَعِنَّةَ، فَتَـطْعَنُ عَـزَائِمُهُمْ قَبْـلَ الْأَسِنَّةِ، وَيَقْتَـدُونَ بـالْحضْرةِ السَّـامِيـة في خـوْضِ الـرَّهَـجِ [3]، وَإِرْخَـاصِ الْمُهَـجِ، وَتَحَمُّـلِ الْأَعْبـاءِ، فِي مُوَالاة أَصْحـاب الْعَبَـاءِ، ــ وَلَا سَلَبَ اللَّهُ هَـذَا الثَّغْـرَ وَأَهْلَهُ ــ :

= ثم قـالت. ثكلتهم إن كنت أعرف أيهم أفضـل، هم كالحلقـة المفـرغـة لا يـدري أين طرفاها، والجملة الأخيرة يستشهد بها علماء البيان في باب التشبيه.

(١) قشرت: أي نزعت

(٢) في الأصل «كانهم لحم المنايا»، والتحموا: تلاحمـوا واختلطوا والمنايـا مفعول فيـه أي في أماكن المنايا، ويقيدون: يأخذون القود من الأحياء للأموات.

(٣) الرهج. الشغب والفتنة، ومنه قول أبـي الطيب:

عـمـر العـدو إذا لاقـاه في رهـج ... أقـل من عمـر مـا يحـوي إذا وهبـا

«عبد الخالق».

مَـا وَهَبَ لَهُمْ مِنْ إِنْعَامِـهِ الَّذِي يَتَهَـافَتُ إِلَيْهِمْ مُتَنَاسِقَـاً، وَيُعِيدُ غُصْنَ مَجْـدِهِمْ نَاصِراً بَاسِقاً:

إِذَا مَـا قَلَى النَّـاسُ السَّمَـاحَ عَشِقْتَـهُ ... وَأَحْسَـنُ مَا تُسْدَى الْمَكَارِمُ عَاشِقَا[1]

حَمَى اللَّهُ مِنْ كَيْـدِ الزَّمَـانِ خَـلاَئِقَـاً ... وَسِعْتَ بِهَـا يَـابْنَ الْكِـرَامِ خَـلاَئِقَـا

إِذَا أَظْلَمُـوا كَانَتْ شُمُـوساً طَـوَالِعَـاً ... وَإِنْ أَجْدَبُـوا كَـانَتْ غُيُـوثـاً دَوَافِقَـا

وَقَدْ زَادَ شَهْرُ الصَّوْمِ رَبْعَكَ صَـابِحاً ... لَـهُ بِـأَفَـاوِيقِ السُّعُـودِ وَغَـابِقَـا[2]

تُـنَـوَّرُ بِـالْقُـرْآنِ أَسْـدَافُ[3] لَـيْلِهِ ... فَيَبْيَضُّ مِنْهَـا كُـلُّ مَـا كَـانَ غَـاسِقَـا

تَـأَرَّجُ مِـنْ تَـقْـوَاكَ فِيـهِ لَـطَائِـمٌ ... يَـظَلُّ لَهَـا عِـرْنِينُ عَـامِـكَ نَـاشِقَـا

فَعِشْ أَبَـداً مَـا شُـوهِـدَ الْأُفْقُ أَوْرَقَـا ... وَرَاحَ قَضِيبُ الْأَيْـكِ أَخْضَـرَ أَوْرَقَـا

إِذَا عُـدَّ قَـوْمٌ لِلْمَعَـالِي أَخَـامِصـاً[5] ... عَـدَدْنَـاكَ تِيجَـانـاً لَهَـا وَمَفَـارِقَـا

* * *

(١) عـاشقا في البيت حـال سدت مسـد الخبر عـلى معنى: وأحسن إسداء المكـارم إذا كـان المسدى عاشقاً، على حد قولهم: أقرب ما يكون العبد من ربه ساجداً.

(٢) الغبوق: ما يشرب بالعشي، كما أن الصبوح: ما يشرب في الصباح.

(٣) أسداف الليل: ظلماته، جمع سدف.

(٤) اللطائم جمع لطيمة: وهي نافجة المسك: قال ذو الرمة يصف أرطاة تكنس فيها الثور الوحشي:

كـأنها بـيـت عـطار تـضـمـنـه ... لـطائم المسـك يحـويهـا وتنتـهب

والعرنين: الأنف.

(٥) الأخامص جمع إخمص: وهو ما لا يصيب الأرض من باطن القدم ويكنى بـه عن القدم برمتها. فالمراد: إذا عد أناس أقداماً للمعالي كنت أنت رأسها.

ثالثاً

في الأفضليات

ومن كلام حسن بن عبد الصَّمد المعروف بابن أبي الشخباء:

غيرُ بِدَعٍ من الزمان أن تنتكِثَ حِبالُهُ، وتصْرَدَ[1] نِبَالُهُ، وَتَفْهَقَ[2] بالغَدْرِ فِجَاجُهُ، وَيُجْدَحَ[3] بالسُّمِّ أَجَاجُه، وتراشَ في قَصْدِ الكرامِ سِهامُهُ، ويثارَ في قَبْضِ النفوس عجاجُهُ، ولذلك عَرَفَتِ النفوسُ مواقِعَ نكرِهِ وَأنِسَتْ بِغَرائِبَ غَدْرِهِ وَمَكْرِهِ، واطمَأَنَّتِ الضُلُوعُ وقد أصْمَتْ صوائبُهُ، وَهَجَعَتْ العُيُونُ وَقَدْ استيقَظَتْ نَوَائِبُه، ولمَّا طَرَقَ الحادثُ بمن لا أُسَمِّيهِ تفادياً من تحقيق الخَبَرِ بمصرعِهِ، وَصَوْناً لَهُ عن مورد الحِمَامِ ومَشْرَعِهِ؛ رأيْتُ المحامِدَ ذَاتَ نور خامد، والمآثِرَ ذَات عِقدٍ متناثر، والقَمَرَ وقد سَئِمَ هالتَهُ، والصُّبْحَ وقد خَلَعَ الليلُ عليهِ غِلالتَهُ. [٢٢٣] وشاهدتُ الفَضْلَ وقد اسْوَدَّتْ سَحنتُهُ، واشتدَّتْ على الزمان إحْنَتُه؛ إذ طرق بما يُتَجَاوَزُ القدرَ ويُوحِشُ الأضالِعَ من صُحْبَةِ الصَّدْرِ. هذا ــ والله ــ هو المصاب الذي تستعذِبُ فيه الحلومُ هَفَوَاتِهَا، وتفارِقُ له القُلُوبُ سويداواتها، وتستخِفُّ النفُوسُ فيه حَمْلَ الأوزار، وتأنَفُ العيونُ من لقائِهِ بغير الدموع الغِزَارِ، حتى تجعَلَ ذلك دَابَها، وتخضِبَ

---

(١) صرد السهم: نفذ حدُّه، وصرده الرامي وأصرده: أنفذه.

(٢) فِهق الإناء فهْقاً وفهَقاً: إمتلاء، والفَيهق: الواسع.

(٣) جدَّحَ الشيء تجديحاً: لطَّخهُ.

بالنجيع اهدابها. إلاّ أنه سرل بمن لا يصبحُ الجرعَ مالِكهُ. ولا تخطِبُ الخُطوب نهالكهُ. فلذلك ساغ للعبيد أن يحلوا الحدم من الإرْشاد إلى مواقف التسليم، والحض على الصبر على نحادث الأليم. ويقتصِروا على الرغبة إلى اللّهِ في أن يهب له عقبى الدار. ويغفل عنه جوامح الأقدار، ويُسعِد بني الدنيا بسعادةِ حدّه. ويصون عن درحه الكسوف شُمُوس مجْدِه

إذا صفحتْ عنك الليالي وأعربتْ نحفظِك فينا هان كلُّ مُضيَّع

ولابن سنان

وكيف يفور الغيثُ فيك بمثله إذا كنتَ لا أرْضى سحائب أدْمُعي
وليس بكاءُ العيْن إلاّ حياته ولا اللؤم إلاّ أنها بقيتْ معي
وأين وفائي! لا مدى الدّمع بالغ رضاي ولا جُهْدُ الصبابة مُقْنِعي
تصامَمْتُ عن ناعِيك حتى أربتْه ودافعْتُ فيك القولَ من كلّ مَدْفع
ولمّا أبَى إلاّ يقينا حديثه
فزعْتُ إلى جفْنٍ من الدّمعِ مُتْرَعِ [٢٢٤]
فأيُّ حُسَامٍ حالتِ الأرضُ دونهُ وكان متى يُضْرَبْ به الخَطْبُ يُقْطَعِ

وهذا الحَدُّ فالمملوكُ يقفُ عندهُ. ثم يُعْطِشْ قلمَهُ بعدَهُ، لما يَلْزَمُ في باب المُضَاب إذا رَمَتْهُ الليالي وراءَ ظهرها. وأبْعَدت الأيامُ عَهْدَهُ بمرِّهَا، من الاكتفاءِ من القول بيسيره، والاستغناء عن كثيرِهِ بقليلِهِ، كَرَاهِيةً لتجديدِ الحُزْن وَتَطْرِيَتِهِ، وَإِشْفَاقاً من تشييدِ ما يجبُ الْحِرْصُ على تعْفِيَتِهِ ولا سِيَّمَا هذا الفادِحُ الذي نَبَّهَ خَامِلَ الثَّرى، ومنع الجفون من مصافحةِ الكَرَى، وَأَحْزَنَ مليكَ الأرضِ وسلطانَ الورى

وتَر الرَّدَى من لو تناول سيفه يوماً لنال من الرَّدَى ما شاء

وهـذا الخَـطْبُ وإنْ رَمَى العقـولَ بـالخَبَـل، وعَمَّ بـالغَمِّ أَهْــلَ السَّهْـلِ والجَبَلِ، ولم يَسْلَمْ أَحَــدٌ فيه من رزْءٍ، ولا خَلاَ من الأَخْذِ منه بأوفـرِ جُزْءٍ؛ فالذي يُسَهِّلُ صَعْبَهُ، ويُنَفِّسُ كَرْبَهُ، ويُسيـغُ صابَهُ، ويُخَفِّفُ أوصَابَهُ، أنَّ مالِكَنَا ــ خَلَّدَ اللَّه دولتَهُ ــ مكفوفٌ بالحمايـة، مشمولٌ بـالوقـايةِ، محفـوظٌ بعنايـة الله وكفايته، مَخْصوصٌ بإطالةِ العُمْرِ وإطَابَتِهِ، جارٍ على عادتِهِ في تـدبيرِ مملكَتِـهِ، وَكِــلاَءَةِ رِعِيَّتِهِ، وَإعزازِ دين اللَّهِ ــ تعالى ــ ونُصْرتِهِ. واللَّهُ ــ تعـالى ــ يجعل مُنتقِصَ المُـدَدِ زِيَادةً في مُـدَّتِهِ، وَلاَ يُخْلي البسيـطةَ من رواءِ سُلطانِهِ وبهجتِـهِ، بِفَضْلِهِ وطَوْلِهِ، وَحَوْلِهِ، وَقُدْرَتِهِ [٢٢٥].

قال الشيـخ أبو القاسم المُصَنَّفُ:

كنتُ أَنْفَذْتُ نسخةَ هـذه الرسـالة إلى بعض الـرؤساء الكُبْـراء ممَّـنْ كان يُؤثِرُ الوقوفَ على ما أعملُهُ، فبلغني أنَّ كاتِبَهُ قال لمَّا رأى ترجَمَةَ هـذه الرسـالةِ قبلَ الوقوفِ عليها:

هلا قال: الغَلوَة في السَّلْوَة وأَنْكَرَ التَّدَلِّـي، فَكَتَبْتُ إليه:

بَلَغَ عَبْدَ الْحَضْرَةِ ما انْتُقِدَ عليه في تَرْجَمَتِهِ مَا خَدَمَ بِـهِ، وما اسْتُبعِدَ من التدلِّي العـائِدَ بـذُنُوِّ النـائي وَتَقَرُّبِـهِ، وَقَدْ كَـانَ يجب أن يُبْقِيَ على مَنْ عَمِـلَ عَجِـلاً، وتـرجَمَ مُرْتَجِـلاً، ولم تَكُنْ لَـهُ مُهْلَةٌ لتنقيحِ ألفـاظِهِ وتهـذيبهـا، وإبْـرَازِهَـا في معـارِضَ تستحسنُهَا النُّقَـدةَ وتهذي بهـا، وإنَّ بعضَ من انتَقَدَ عليـه قال: هَـلا كانت الترجَمَةُ: الغَلْوَة في السلوة؟

وعبدُها يقول:

أمَّا الغَلْوَةُ فهي: المرماةُ، والمِغْلاةُ: السَّهْمُ، فالغَلْوة: غَايَتُهُ. وهذا ضِدُّ مرادِهِ؛ وذلك أنَّ التَّدَلِّي إنَّما هُوَ التَّوَصُّلُ؛ تدلَّيْتُ على الشيء إذا توصَّلْتُ إليه.

ومنه أدلى فلانٌ بِحُجَّتِهِ إذا توصَّلَ بما أَتَى به إلى بغيتِهِ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثم دنا فتدلَّى﴾[1] وهذه الآيةُ من باب قوله سبحانه: ﴿ما إنَّ مفاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعُصْبَةِ أولي القُوَّة﴾[2]، وهو من المقلوب، أي: تَنُوءُ بها العُصْبَةُ أولو القُوَّة و: ثم تَدَلَّى فَدَنَا.

وقد قال الشاعر:

لا تَقْلُواهَا وادْلُواها دَلْوا إنَّ مع اليومِ أخاه غَـ [دْوَا][3]

وَتَقْلُواها: تُبْعِدَاها، وادلُواها: قَرِّبَاها، والدَّلْو من هذا؛ لأنها تُقَرِّبُ الماءَ بَعْدَ بُعْدِه.

فَقولُ عَبْدِهَا: التَّدَلِّي على التَّسَلِّي إنما معناهُ: التَّوَصُّلُ إلى السَّلْوَةِ بأسبابها من التأسِّي، وَطَلَبِ الثَّواب، وغير ذلك.

وقولُ من قال: الغَلْوَةُ في السَّلْوَةِ، إنما هُوَ الوصُولُ إلى غايتها، والفَرْقُ بين من قَصَدَ التَّوَصُّل، وَبَيْنَ من بَلَغَ الغاية لا يَخْفَى عن أحدٍ، فقد بَانَ تَضَادُّ الترجمتين، وتنافي الغَرَضَيْنِ، وما ضَرَّ من انتقد لو صَبَرَ [٢٢٦] إلى أَنْ يقِفَ على الرسالة، ثم يقول ما يختار، ولا يَعْجَلُ بأنْ يَضَع منِّي ما صَدَرَ عَنِّي، فاللَّه المستعانُ وصَبْرٌ جميلٌ.

قال الشيخ أبو القاسم: كانت وفاةُ الأَجَلِّ المُظَفَّرِ ـ رضي الله عنه ـ يوم الخميس تاسع جُمادَى الأولى من سنةِ أَرْبَعِ عَشْرة وخمس مائة، وكانت

---

(١) النجم: ٨.

(٢) القصص: ٧٦.

(٣) مطموسة في الأصل، وقد أكملناها من لسان العرب؛ فالبيت هناك (دلا).

ولادَتُهُ في سنة تسعٍ وسبعين وأربع مِائة[1].

الحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد خاتم النبيِّين، وعلى آلِهِ الطاهرين، وسلَّم تسليماً، حَسْبُنا الله ونعم الوكيل.

(١) بعد هذا طمس بمقدار خمسة سطور.